الصمت المقدس

ولحظات أخرى

قصص قصيرة

د. عصام عبد العزيز



إهـــــــداء٢٠٠٨
رصيد عام

قصص قصيرة

الصمت المقدس

و

لحظـــات أخـــرى

د. عصام عبد العزيز



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية ، إدارة الشئون الفنية .

عبد العزيز ، عصام .

الصمت المقدس ولحظات أخرى : قصص قصيرة /

تأليف : عصام عبد العزيز . ــ ط١. ــ

القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ٢٠٠٧.

١٢٦ ص ، ١٢× ٢٢ سم

١ـ القصص المسيحية

أ ـ العنوان

رقم الإيداع : ٧٨٢١

ردمك :٦ـ٤ـ٢٣٠٤ـ٠٥ـ٩٧٧ تصنيف ديوى : ٨١٣,٠٨٨

المطبعة : محمد عبد الكريم حسان

النــاشــر: مكتبـة الانجلـو المصريـة

١٦٥ شارع محمد فريد

القــاهرة ــ جمهوريــة مصر العربيــة

ت : ٣٩١٤٣٣٧ (٢٠٢) ؛ ف : ٣٩٥٧٦٤٣ (٢٠٢)

E-mail : angloebs@anglo-egyptian.com

Website : www.anglo-egyptian.com

نوران ..

هبة الخالق ..

إبنة البحر والشمس ..

وصدى صمتى المقدس ..

عصام عبد العزيز

إهــداء

إلى الأستاذ / نجيب محفوظ ...

الذى شاركنى عزلتى سنوات طويلة ..

وإلى الأستاذ / أنيس منصور ...

الذى جعل حياتى جحيماً مستعراً ... ولولا تلك النار التى إشتعلت داخلى ما حققت شيئاً ..

وإلى الكاتب / نيكوس كازنتزاكيس ..

الذى أحترمه وأقدره كثيراً .. والذى تعلمت منه الكثير أيضاً ..

إليكم « الصمت المقدس ولحظات أخرى »

د. عصام عبد العزيز

الفهـرس

(١)

لحظات أخيرة

لحظات أخيرة

تغمر صفرة الموت الأفق باللون الأصفر قبل أن يحل الغروب بساعات وكان مازال يردد أنفاسه الأخيرة وهو ممدد على فراشه .. حصيرة صفراء أيضا مفروشة على الأرض .. وعما قليل سيغوص فى باطن هذه الأرض حيث ينتظره الجميع . بينما تتربع الأم العجوز مستندة على الحائط ناظرة إلى إبنها تارة .. وإلى آية الله جل جلاله المعلقة على الحائط تارةأخرى . تشعر فى قرارة نفسها أن الله ثالثهما منذ أن كتب اسمه على الحائط .. غير أنها تشعر أيضاً .. وبخبث شديد .. أن هذه اللحظات تتشابه تماماً مع لحظات رحيل الأب .

الصمت والحرارة والله وشعاع شمس أصفر ينفذ عبر طاقة الغرفة فيكسبها صفرة مميزة ينتشر على جسده الطويل الممدد على الأرض .. وذباب يحلق ولا يستقر على وجهه .. وإحساس بالعطش .. وأرض بعيدة المدى جرداء تارة وصفراء تارة أخرى .. تتململ الأم فى جلستها ثم تعود إلى وضعها موزعة عينيها بين ابنها وبين الله . عواء كلب يأتى من بعيد فيزيد من وحشة المكان .. غير أن سعاله يرتفع فيطغى على العواء .

لم يكن المحصول كما ينبغى هذا العام .. والعيد بعد أيام والحجاج على وشك العودة .. وزجاجة ماء زمزم سوف تكسبه الصحة والشفاء ورمال مكة المكرمة الساخنة سوف تنزع عن صدره كل برد وكل دم أسود .. شجرة ضخمة كثيرة الفروع كثيرة الجذور .. تتشعب .. كالسرطان وتمتد على مسافات بعيدة .. وبجوارها تدور الساقية تبعث بالمياه فى تتابع مستمر ..

وخرير ذو وقع جميل لا ينساه أبداً .. فيزيد من إحساسه بالعطش ويرى الصفرة تزداد والحرارة تسرى فى جسده وهو محاصر بين الله جل جلاله .. وبين أمه التى مازالت محدقة النظر إليه لا يغمض لها جفن.

ما أجمل منظر الشفق وحمرة الشمس وهى على وشك فرض السيادة وكشف خبايا الليل وفضح الأشباح والأرواح العائدة .. فتتراءى له ذكرى أبيه وصورته بجسده الضخم وطوله الفارع وهو يضرب الأرض بقوة .. يعدل فأسه ثم يواصل ضربه .. وها هو يقبل عليه ويعطيه منديلا محملا بالأرغف والجبن الأبيض والبصل وقلته المكسورة الرقبة .. بينما تتباطأ الأم فى مشيتها حاملة على رأسها أعواد القصب .. فيكتمل شمل الأسرة.

كل شىء رائع .. كل شىء ساحر .. فيا لبريق المياه على سطح الترعة وتتابع أمواجها فى تراقص شديد وحوار الضوء مع الماء .. الله يغمره بحرارته .. والشمس بشعابها الأصفروالأم تحتويه بنظرتها .. فيا لهذا البعد .. ويالهذا الصمت .. والحر الخانق .. سعال متواصل ذو صوت مبحوح يفزع منه الذباب .. وعلى البعد تمتد المقابر .. وضريح سيدى الفرج .. وصوت ناى يعزف .. ورنين صاجات غازية ترقص .. وليلة سبوع لا ينساها .. وعيار نارى يدوى .. وجرعة ماء بارد فى يوم حار تنسكب على ذقنه وتسيل على رقبته وجلبابه من قلة ذات رقبة مكسورة .. الصفيرة الطويلة .. وصوتها .. صوتها .. لا يغيب عن أذنه . العطش الشديد والصفرة والحرارة الشديدة والخواء والسكوت والفراغ .. الفراغ يتسع .. يتسع .. وسراب يبرق ويتراقص .. ويهتز قلب الأم عندما تسمع نباح الكلب .. وتلمح حضور الأب يطلب الرحيل ..

يرتفع صوت الأم بالصراخ والعويل ولطم الخدود .. فينعكس صوتها على جسده الساكن .. فيرتد على آية الله جل جلاله ويخرج عبر طاقة الغرفة فى موجات متتابعة وفى عكس مسار شعاع الشمس الأصفر فيلتحما ويكتسب

حمرة مخيفة مقبضة . ينتشر الصراخ فى القرية ويتوافد على الدار أسراب من النساء ذات جلاليب سوداء .. يزداد نباح الكلب ويزداد قرص الشمس الأحمر احمراراً وانحداراً..

تتمدد الأم على الحصيرة وحيدة .. لم يبق لها غير الله جل جلاله والصمت .. غير أنها تسمع وبوضوح شديد .. صوت الديك وهو يصيح ثلاث مرات قبل الفجر بساعات وقبل أن يؤذن الأذان.

١٩٦٥

مصر الجديدة

(٢)

مــوتمهــرج

موت مهرج

السمو والعظمة والكبرياء .. كلمات ظلت تتردد على أذنيه طوال سنوات عمره .. فعمل جاهداً على فهم معنى تلك الكلمات .. ولكن كانت هناك دائماً حواجز قاسية تمنعه من فهم وإدراك الإحساس بتلك المعانى .. إن الأمر أكثر تعقيداً مما يتصوره العقل .. إن نظرة واحدة إلى السماء تجعله يدرك البعد الحقيقى بينه وبين هذا العالم السماوى .. إن لفتة واحدة إلى هامات ورؤس الرجال .. تجعله يدرك حجمه ومكانه الحقيقى فى هذا العالم.. هذا العالم الذى فرض عليه هذا الوجود لكى يواجه مصيره القاسى .. هذا العالم الذى قذف به فى هذا الكون لكى يعانى منه معاناة تفوق طاقة البشر .. إن العالم بالنسبة له عالم من المبانى الشاهقة والقامات البشرية العالية التى لا يستطيع أن يصل إليها فى يوم من الأيام.

إنه لا يشعر فى قرارة نفسه بالسمو .. ولا يستطيع أن يدرك معنى العظمة .. وبالتالى حاول جاهداً .. أن يتظاهر بالكبرياء لكونه مميزاً فى هذا العالم .. غير أن ذلك لا يستمر سوى لحظات .. لحظات قليلة سريعة خاطفة كالبرق .. ثم سرعان ما يعود مرة أخرى إلى رشده .. إلى وجوده الحقيقى .. لكى يقرر أن هذا العالم ينقسم إلى قسمين .. قسم خارجى واضح لا ينتمى إليه .. وقسم داخلى عميق شديد الخصوصية وخاص به فقط .. إنه عالم داخلى أشبه ببركان من الغضب والحقد والسخط .. إن اللعنات التى يطلقها تجاه هذا العالم والتى تشبه حمم البراكين كفيلة بإحراق هذا الكون الذى لم يجد فيه معنى وجوهر العدالة ... عدالة تشعره بإمكانية الفهم والإدراك بل

والإحساس بتلك الكلمات الجوفاء التى يتشدق بها الجميع .. نعم .. إنه يحترق من الداخل لغياب هذه العدالة .. عدالة توزيع الحقوق الإنسانية على البشر .. لاشك فى أن السماء تسخر من الإنسان وكرامته .. إن غياب العدل هو الجحيم الأرضي الذى يحترق فيه الإنسان ويصلب على مر العصور.

وكان كلما أمعن فكره ونظر إلى الأمور نظرة موضوعية .. أدرك أن كل ما ينبع من داخله من غضب وحقد وثورة مصحوبه بلعنات حادة .. إن كل هذا لا يكفى لكى يجد فى نفسه عزاء يتعزى به فى هذا العالم .. إن كل هذا لا يكفى لكى يجد لنفسه عذر يمكن أن يقيم به إتزان ذاته مع هذا الكون القاسى ومع هذا المجتمع البشرى الذى وجد فيه دون ارادته ورغبته .

لا شيء فى هذا العالم يمكن أن يعوضه عن الآلم الداخلى الذى يشعر به.

إنه يعمل فى سيرك .. مهرجاً يثير الضحك من كل ما يقوم به من اسكتشات ضاحكة بين النمر والألعاب المختلفة .. إنه يملأ حلبة السيرك بالضحك الصاخب .. كما أنه يجيد الرقص والغناء والأكروبات والقفز والمشى على الحبال والسير على السلك .. وكان غناءه ينبعث من داخله فى صوت يثير الشجن والحزن .. صوت يملك قدرة عالية على التأثير فى المتلقى حتى يكاد ينسى تماماً .. أن هذا المغنى ليس إلا مهرجاً .. كان جرس صوته يسرق قلوب وأرواح المستمعين .. بل يكاد يسحرهم .. لكنه كان يعى تماماً ويدرك جيداً أن تكوينه البشرى والذى نحت له منذ البدء هو بمثابة ادانة قوية ودامغة .. تؤكد غياب الكرامة الإنسانية من هذا العالم .. وإن هذا القدر هو الذى جعله المختار لهذا العمل التهريجى .. ولكن كان دائماً ما يطرح على نفسه هذا السؤال الدرامى .. هل من عمل بديل له يمكن أن يؤديه غير عمل المهرج .. بل إنه لا يملك غيره .. بل ليس فى إستطاعته إلا أن يكون مهرجاً .. بهذا كان يحدث نفسه دائماً.

كان يشعر بأن أسعد لحظات حياته هى تلك اللحظات التى يمضيها داخل حلبة السيرك .. السير على السلك المشى على الحبل .. العمل مع فريق الترابيز والعقلة الطائرة .. إذ أنه يكون خلال تلك اللحظات المصيرية فى الأعالى .. فى أعلا مكان فى السيرك .. قريباً من السماء وبعيداً عن الأرض .. الأرض التى يمشى عليها بالحذاء .. وبقوة كما لو كان يريد أن يسحقها سحقاً .. إذ أنه يمقتها مقتاً ميتا فيزيقيا من ناحية .. ومقتاً إنسانياً من ناحية أخرى .. إن كل لحظة يمضيها على الأرض هى لحظة حزن .. بل لحظة موت .. موت ولا شىء أكثر من الموت فى قسوته .. لقد شعر دائماً بأن نفسه حزينة حتى الموت .. تماماً مثل اللحظات التى شعر بها المسيح قبل أن يصلب .. وكان أشد ما يحرقه حرقاً ويعذبه عذاباً شديداً .. هو عدم وجود إمكانية لكسر هذه الحتمية أو حتى تغيير هذا المصير الذى قدر له منذ البدء .. هذه الحتمية وهذا المصير وعمله كمهرج .. كل ذلك قد قاده لكى يبدأ رحلة طويلة وشاقة بل ومضنية إلى عالم مجهول .. عالم لا يعرف كيف يكون له أن يصل إلى منتهاه .. هذه الرحلة الشاقة قد بدأت عندما بدأ لا شعورياً يطرح على نفسه الأسئلة اللانهائية والمغرقة فى قسوتها .. قسوة التناقض الذى يمزقه من الداخل والتى جعلته يتآكل ذاتياً .. قسوة التناقض الذى يكمن فى أقصى أعماقه والذى يدور فى عقله ويبتلع روحه .. حتى أثناء عمله كمهرج داخل حلبة السيرك وأمام الجمهور الذى يضحك إذاء كل ما يقوم به ودون أن يعى شيئاً عن أعماق هذا المهرج .. ما هو عالمه الداخلى الذى يحرك عقله .. بل وروحه أيضاً ..

كانت الأسئلة تعلو فى داخله شيئاً فشيئاً .. حتى تصير ناراً حارقة .. فلماذا قد وجدت فى هذا العالم بهذا النحت وبهذا الشكل! .. لماذا اختارنى قدرى الذى لا أعرف كيف أسميه لكى أكون هكذا !.. لماذا صممت قوى السماء وتركتنى وحيداً فى هذا الكون لكى أواجه العالم والآخرين وذاتى بهذا

الشكل وبهذا التكوين الإنساني .. أهذا ما يرضى الرب .. أهذا ما أختاره الله لى .. هذا الإله العادل .. ألم تقل .. وسامحنى أيها الرب العادل .. أنك خلقت الإنسان على مثالك وصورتك .. أنا أضعف وأصغر من أتناقش معك فى كل ما يمزقنى من الداخل .. ولكن إذا لم أحدث معك فمع من إذن أتحدث ؟ .. إذا لم يكن فى أمكانى أن أطلق كل مكنون أعماقى إليك .. فإلى من أسمعه صراخى ! .. إذا لم أشكو إليك قلة حيلتى وضعفى وصمتى الصاخب والذى يصرخ من أعماقى .. فإلى من أشكو .. ! .. سامحنى .. سامحنى أيها الرب .. أيها الرب العادل .. فأنا مازلت أضعف وأصغر .. أصغر من أن أعرف ما هى مشيئتك وحكمتك الغيبية السماوية .. أنا .. أنا المهرج .. المهرج .. مهرج السيرك والذى نحته بيديك الكريمتين هكذا .. وقذفت به فى هذا الوجود هكذا ..

كان يبكى بكاءاً صادقاً حين يعجز عن العثور على إجابة لكل التساؤلات التى تحيره .. كان يبكى حتى وهو يؤدى حركاته التهريجية .. وكان المكياج الصارخ الذى يضعه على وجهه يخفى بعضاً من معالم حزنه .. كان لا يستطيع أن يجيب على تلك الأسئلة المفرقة بساطتها .. لأنه لا يدرى شيئاً تجاه إجابة تلك الأسئلة .. بل لم يستطيع عقله أن يسعفه بالعثور على أى إجابة مقنعة تجاه هذا الوجود البشرى الذى وجد فيه هكذا .. كان الآخرون يرون أن وجوده فى حد ذاته وبهذه الكيفية هو السبب الحقيقى لعمله ..وسبب نجاحه أيضاً .. غير أنه يرى أن عمله ونجاحه وتهريجه المضحك والقاسى .. قد فرض عليه فرضاً ونجاحه لا يعنى شيئاً بالنسبة له .. فرغم ملايين الصور التى طبعت له .. ورغم أن المصورين الذين يعملون فى السيرك يربحون الملايين من وراء تصويره مع الأطفال والسياح وأهل البلدة .. ورغم النقود الكثيرة التى يتقاضاها .. إلا أن ذلك لا وزن له بالنسبة إليه .. إنه أعظم وأغرب مهرج سيرك فى العالم .. إن سركات العالم تتخاطفه ..

ولكن كل هذا النجاح لا يعنى شيئاً لأن عقله لم يستطع أن يجيب على صدى الأسئلة التى يطرحها على ذاته ..

إن صوت الموسيقى والطبول الصاخبة تضيع مرارة الأسئلة والتى لا يكف عن طرحها لا شعورياً .. للحظات قليلة وذلك أثناء العروض الإستعراضية .. حيث يأخذه الحماس وحب العمل وصوت التصفيق الممزوج بالضحك الصاخب .. ولكن عندما يسود الصمت يبدأ عالم الجحيم الداخلى وتعاود الأسئلة طرح نفسها .. وتبرز صور التمرد على هذا الكون بقسوة وحقد ويصبح المصير والقدر .. صلبان يصلب عليها مرة أثر الأخرى .. إن كل يوم يصلب فيه تحت الشمس صباحاً ويصلب عندما يبزغ نور القمر ليلاً .. حتى توحد مع الصليب القاسى .. إن المسيح قد صلب مرة .. أما هو فقد ساقه قدره لكى يصلب آلاف المرات .. دون سبب واضح لهذا الصلب ولهذا العذاب الذى قدر عليه والذى يغلف حياته وسيظل هكذا حتى لحظة الموت .. الموت .. أى موت .. إنه يموت كل يوم بل كل ساعة .. بل كل لحظة حين يواجه ذاته أمام الآخرين .. أمام المرآة .. أمام نفسه ..

كان كثيراً ما يبصق على الأرض التى يمقتها .. وكانت عيناه تتطلعان إلى السماء فى عتاب شديد .. فلا يوجد ما يثلج صدره ولو للحظة واحدة .. ولا يوجد ما يطفأ ظمأ ما يحمله من الأسئلة التى تشعل نار الفكر فى عقله والتى تجعله يتلوى كالحية فى فراشه .. إن كمية الحبوب المنومة التى يتعاطاها لا تجعل النوم يتخلل نومه لا نوم .. لا أحلام .. حتى الحلم قد جرد منه .. لا إبتسامة حقيقية صادقة .. حتى السعادة قد حرم منها .. وهو الذى منح السعادة والضحك للجميع ..

أى قسوة يمكن أن يتحملها بشر .. إنه لا يواجه وضع أو مشكلة هامشية .. إن مشكلته هى مشكلة ميتافيزيقية كونية قدرية من الدرجة الأولى .. فلماذا أنا .. أنا الذى ترصده العيون والصور .. أكون قد جردت من كل

حقوقى كإنسان .. انتزعت منى كرامتى الإنسانية فى قسوة بالغة .. أجل أنا الإنسان الاوحد .. أصبحت مسخاً فى صورة إنسان وسأبقى هكذا حتى الموت لإنى لا أستطيع أن أغير الحتمية .. ولكن أدرك تماماً أنى إنسان .. أجل إنسان وسأظل إنسان حتى الموت..

قذف بزجاجة الحبوب المنومة من نافذة كرفان السيرك الذى ينام فيه .. ونام لأول مرة فى هدوء وإستسلام .. لا يعرف أحداً هل داهمه كابوس مرعب .. أم إستولى عليه حلم وردى .. لإنه ولأول مرة قد تأخر فى الإستيقاظ .. إنتظره الجميع فى الموعد المحدد للعرض الإستعراضى الجديد الذى سيقدمه السيرك فى هذه الليلة.. ولكنه تأخر فى الظهور.. وتأخر فى الحضور..

دخل عليه مدير السيرك .. ولكنه عاد مطرق الرأس حزيناً ..

قال فى صوت حزين .. لقد مات المهرج .. لقد مات أصغر قزم فى العالم ...

د. عصام عبد العزيز

مدينة نصر

٢٠٠٤

(٣)

لحظات صمت

لحظات صمت

خاطبه فى قوة وحزم ... لا تؤذن حتى أعود إليك ...

كان يرتجف .. عندما سمع صياح الديك .. فقد أحدث بداخله موجات وأصداء غريبة .. متداخلة مع أفكاره .. شعر بها وسمعها بوضوح من أقصى أعماقه .. أشبه بمن يلقى حجراً فى قلب الماء .. فيفقده هدؤه وصفاءه ..

ترك المسجد .. وظل يلهث مواصلاً الجرى .. ثم إنسل فى خفة حتى وصل إلى غرفتها فوق السطح .. أخذ يقرع الباب بدقات متواصلة .. حتى فتحت له وحمرة النوم تملأ وجهها وجسدها .. فأجاب صمتها : توبى إلى الله .. لكى أكون لك إماماً .. أو سيرى فى عهرك .. أكون لك قواداً .. ولكن .. لا تتركينى أبداً .. فقد سئمت الوحدة .. خفت الخوف .. كرهت أشباح وسياط الليل الأسود البارد الكئيب .. عقلى يتلاشى .. وجسدى تمزقه السخونة والإرتعادات .. بدونك أرانى تائها .. أهذى كالمجنون فى الطرقات .. فى أروقة الجوامع .. أستعيذ بالله جل جلاله من كل شيطان رجيم .. حتى أتمالك وأنا فوق المنبر .. حتى لا أنطق كفراً .. حتى لا أذكر اسمك سهواً .. بالله عليك .. دعينى أسجد عند قدميك لحظات .. حتى أجمع شتات نفسى .. كى أبرد صدرى .. كى أقذف بعقلى وقلبى وروحى بين يديك .. مستسلماً خاشعاً .. فقدت إتزان نفسى .. وأريد العودة إلى ذاتى ..

مالك وما هذا الصمت الذى يشق ظلام الليل صراخاً .. مالك وصمت الموت البارد يسرى فى عروقك .. أجيبى .. أنطقى .. تركت نداء الصلاة وحى على الفلاح .. كى آتى إليك .. كى أنطق بإسمك .. مباركاً به نفسى

كى أحيا من جديد .. أنطقى يا لصيقة قدرى .. اصرخى فى وجهى .. ياشهوة قداسى الأسود البغيض ..

من أجلك .. تركت الله ولصقت بشيطانه .. فاحترقت بناره .. وظللت أرقص فى محرابه رقصا بطيئا مملاً .. ظللت كالأبله أمثل دور الإمام .. كل يوم خمس مرات فى اليوم الواحد .. مردداً .. دون أن أعى شيئاً .. ما حفظه لسانى وما أسقطه عقلى .. فاحتجبت وتوارت من داخلى .. روحى .. من أجلك .. سبحت فى نهر الخطيئة .. وسأظل أسبح فيه وبلا عودة .. حتى لقاء ربى ..

كنت أبكى .. وأنا أرى الأجساد والأعين .. خاشعة أثناء الصلاة .. ركعاً سجداً لرب العالمين .. كان كل ذلك يفزعنى .. يعذبنى .. فيحرقنى حرقاً وأنا تحت سقف المسجد .. متوارياً خلف محرابى .. كانت أصوات أمين .. أمين .. حرابا تخرق ظهرى وتمزق صدرى .. كنت أمثل الركوع والسجود أمام المصلين .. حتى تحولت إلى آلة صماء .. بلا قلب .. بلا حرارة الروح .. كنت الخواء التام .. والعدم .. خبئت نار الإيمان فى قلبى منذ أن اشتعل وتوهج بك .. حمدت الله فى سريرتى كثيراً .. لأنه .. هو وحده الذى يعلم ما فى الصدور ..

أتصمتين ؟ .. ألا تفهمين ؟ .. لما لا تقولى شيئاً! ...

على أن أعود الآن إلى المسجد .. ولذا فقد استخرت الله .. أن أحسم هذا الأمر اليوم .. وقبل الفجر .. وقبل أن يؤذن الآذان .. أتكونين معى .. يكون الله ثالثنا .. أو أكون أنا معك .. فتكون نار جهنم مأوانا إلى أبد الأبدين .. إعلمى جيداً .. أن الهجير والبعد عنك .. لأشد قسوة من عذاب الآخرة .. لم يبق سوى لحظات ويؤذن الفجر .. إنطلقى .. أفصحى .. أستحلفك بالله أن تتلوى جسداً .. أن يشع النور من عينيك .. أن ترتجف روحك للحظات

تضيئ روحى .. أفعلى شيئاً .. افعلى أى شئ .. أكاد أجن يا مومس قدرى .. يا أسفل عاهرة خلقها الرحمن .. يا أرخص ساقطة شهدها العصر ..

أجابت صراخه المستمر بالصمت .. فلم تكن تملك فى لحظات الفجر .. إذاء ثورته وهياجه .. سوى الصمت ولا شيء غير الصمت ..

دفعها بقوة إلى الأرض .. وضاجعها كثور ذى خوار .. فاستسلمت له .. ذبحها وإنصرف .

خاطبه بقوة .. أذن .. فلن أعود إليك .. ثم ما لبث أن إختفى مع صياح الديك .

١٩٧٣

مصر الجديدة

(٤)

الفيلسوف.. ولحظة أمل

الفيلسوف..ولحظة أمل

الفلسفة ولا شيء غير الفلسفة .. هي حياته ومستقبله .. ماضيه وعزلته . غير أن شيئاً ما قد تغير .. حيث لاح له الأمل كملاك يتراقص أمامه ويشير إليه كي يتبعه . ها هو يبتسم بل ولأول مرة يشعر بحاجته لأن يقف أمام المرآة لكي يتأمل نفسه بإمعان وكأنه يرى ذاته لأول مرة . أخذ يتحسس شاربه وينظر إلى شعره الأسود الذي تخلله الشعر الأبيض .. ويدير وجهه ذات اليمين وذات الشمال .. يعدل رباط عنقه يتحسس جسده ويشعر بذاته ويتنفس بعمق .

بالأمس وبالأمس فقط .. كان قد شاهد فيماً سينمائياً يحكي قصة حب .. فبدأ يفكر في حياته .. هذه الحياة لابد أن تعاش .. فهناك أشياء أخرى لابد أن يعرفها غير العزلة والألم وتدوين الخواطر الفلسفية . أدرك أن هذه الحياة لا نهاية لها .. وأنه لن ينال شيئاً من وحدته هذه .. بل إنه الخاسر في هذه التجربة التي فرضت عليه وهي تجربة حياته . أدرك أن هناك أناس يعيشون ويحيون حياتهم بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معاني ومضامين .. كانت مشاهد الفيلم تتراقص أمامه دائماً .. وكان بتفكيره الدائم قد توصل إلى بعض الحقائق التي سجلها في مفكرته الخاصة «حقاً .. الحياة فرضت علينا بدون إختيارنا .. فلابد أن نحياها ونتمسك بها إلى أقصى حد بل وبكل قوانا وأن نتأهب لها وندخل معها في صراع قد يكون مريراً أو قد يكون هزلياً .. ولكن لابد من الصراع لأن عملية إحتكاك الإنسان بالحياة هي التي تولد الحرارة وهي التي تدفع الإنسان إلى التقدم والتحضر أو إلى الإنتحار» .

هكذا كان دائماً يسجل خواطره الخاصة.

فلينبذ كل هذه الأفكار وليعش حياته. لأول مرة يدرك أنه بحاجة إلى إنسان يشاركه حياته .. كي يخرجه من عزلته هذه التي يحياها .. نعم إنه يحبها .. وإن كان حباً صامتاً، أما الآن .. فليذهب إليها .. وليكشف لها حبه الصامت ورغبته فيها، وهي التي كانت دائماً تحاول أن تكسب صداقته وتتودد إليه .. ولكنه كان يرفض الصداقة ويخشى الحب. أما الأن فكل شيء قد تغير .. وها هي الحرارة تسرى في جسده، في كل جوارحه .. وها هي روح طاغية تدب في عروقه .. تملؤه حماسة وقوة وعزماً علي مواصلة الحياة .. موسيقى الفيلم لم تنقطع .. بل ظلت تتردد على مسامعه.

أهكذا يتغير الإنسان .. أهكذا يقبل على الحياة بعد رفضه لها .. أهكذا تظهر للإنسان لحظة الأمل ! .. أتكون لحظات الأمل تلك دليلاً ومرشداً لطريقه فى الحياة !

فليتزوجها ويعيش حياته الجديدة ويقتحم معها أسوار العزلة ويدخل فى تجربة الحياة ويمضى قدماً إلى الأمام .. فهو الأن لا يخشى الصراع ولا التجارب.

فليفتح نوافذ غرفته وليخرج إلى الشرفة وليترك الهواء البارد يتردد على وجهه وليستنشقه بعمق وبقوة .. وليخرجه بقوة أيضاً .. محملاً إياه كل الأفكار السوداء التى تعيش معه.

فليترك هذا الدرب الذى يعيش فيه .. وليترك هذا المنزل الكئيب الوحيد فى هذه المنطقة .. وليسكن فى منطقة سكنية مليئة بالناس وبالمنازل العامرة المزدحمة. إنه الأن يريد أن يعيش بينهم .. أن يسمع أصواتهم .. أن يحادثهم ويحادثونه .. أن يلتحم معهم وأن يصبح واحداً منهم لأنه، كما أدرك لاحقاً، ورغم العزلة القاسية التى فرضها على نفسه أو التى فرضت عليه من

أقصى أعماق قلبه إنسان بحاجة إلى الآخرين.

أخذ يتأمل الطريق الوحيد الذى يعبره كل يوم ليصل إلى هذا المنزل المنزوى .. وأمامه صحراء لا نهاية لها وكان الصوت الوحيد الذى يسمعه فى هذا المكان هو أصوات الكلاب الضالة أو صوت القطار الذى يمر سريعاً ولكن من بعيد . كانت أصوات الكلاب المبحوحة التى تصل إلى سمعه تثير فى نفسه نوعاً من التشاؤم والقرف بل كاد أن يوشك على القيء كلما سمع أصواتها تعوى وتعوى .. كان لا يتحمل عوائها خاصة فى الليل .. فإذا سمعها انتفض من النوم مذعوراً .. ويشعر بالألم والدوار ويسد أذنيه بقوة ويجز على أسنانه وتنتابه الهلوسات.

أما الآن .. فكل شيء حقاً قد تبدل .. فها الكلاب تعوى أمامه بدون أن تثير فى نفسه التشاؤم أو القرف.

غادر المنزل بكل حيوية ونشاط ، غادره بفكر رفض القديم وتفتح لاستقبال كل ما هو جديد.

سار عبر الطريق الوحيد بخطوات متزنة معتزاً بنفسه إلى أقصى حد واثقاً أشد الثقة فى غده .. وفى ذلك الشيء الجديد الذى آمن به وهو الأمل . كان عليه أن يقطع عبر الصحراء مسافة ٥٠٠ متر لكى يصل إلى محطة القطار فيستقله وليشق به حياته الجديدة.

وفى منتصف الطريق .. كانت الشمس ترسل أشعتها بقوة وبحرارة .. وها هو يسمع عجلات عربة تحتك بالأرض فتحدث أصواتاً متقطعة مزعجة وها هو صوت كلب يعوى .. وكلب آخر مفزوع يجرى فى إتجاهات مختلفة تتساقط منه الدماء .. وها هى عربة الكلاب يجرها بغل أسود يقودها رجل ضخم أيضاً .. وفجأة وبلا مقدمات يطلق صائد الكلاب طلقة نارية على كلب مسعور يطارده .. فتستقر فى ظهر صاحبنا هذا . فيتوقف كل شيء كان

يجرى فى عقله وتتفتح حواسه لذلك الشيء الآخر الذى أخترق ظهره وإستقر فى جسده .. وبلا إرادة وضع يده على ظهره فإذا بدماء حارة تنطلق كأنها ينبوع انفجر لتوه .. فيجز بأسنانه على شفتيه ليتحمل الألم .. ولكنه لم يستطع .. فسقط على الأرض سقط على ركبته ثم على ظهره .. حاول أن يذكر اسم الرحمن فلم يستطع .. حاول أن يرسل لعناته على العالم أجمع ولكنه لم يستطع أيضاً .. فإرتسمت على وجهه إبتسامة مخيفة وإنتظر .. إنتظر وأرهف أذنيه للسمع غير أنه لم يسمع سوى موسيقى فيلم أمس .. تأتيه من بعيد .. من أقصى أعماق قلبه .. وروحه أيضاً.

أسرع صائد الكلاب نحوه وحاول أن يرفعه ولكنه لم يستطع لكثرة الدماء المنبثقة منه .. فنظر إليه بإمعان .. فإذا مكان رقوده قد أصبح غارقاً بالدماء .. أداره على وجهه .. وأخذ يتحسس مكان الطلقة التى أحدثت فجوة فى ظهره . حاول إخراج الطلقة فلم يفلح .. حاول إستخدام سكينة ،لكنه لم يستطع .. فسكت كأنه أدرك وبذكاء ، أن كل ذلك .. بلا فائدة.

أخذ يسائل نفسه : ماذا يحدث لو اكتشف مكان هذه الجثة التى لاتزال حية .. أيأخذه ويسرع إلى أقرب مكان ليسعفه ؟ .. ولكن ماذا سيقول لهم ؟ .. أخطأه بدلا من الكلب فيعاقب ويحاكم !.. أم يدفنه فى الصحراء .. فتنبش عنه الذئاب والكلاب ثم الأدهى من هذا كله .. اكتشاف الجثة .. وإكتشاف الخرطوشة الميرى أيضاً .. كل ذلك قد جعله يعيش فى رعب وقلق . ولكن ماذا يفعل الأن ؟ . ظل صامتاً ثم فجأة توهج وجهه وإنفتحت عينيه وبرقت كأنه توصل إلى حل .. أو كأنه قد توصل إلى فكرة تستطيع أن تمحو خطأه هذا.

وبسرعة شديدة .. ذهب إلى عربة الكلاب وقادها إلى جوار صاحبنا هذا .. وأخذ وبحذر شديد .. يخلع ملابس الجسد إلى أن تركه عاريا وبعد أن أحرق كل أوراقه . حمله على كتفيه القويين .. وصعد به إلى العربة التى

تنبعث منها عشرات الأصوات المخيفة ثم فتح طاقة فى أعلى العربة وببطء شديد وبحرص أشد .. أسقط الجثة فى داخل العربة وتركها غذاءاً جيداً للكلاب التى سارعت فى النهش والتمزيق بالرغم من أن صاحبنا مازال فاتحاً عينيه مجمداً الإبتسامة المخيفة على وجهه مستسلماً بلا إرادة .

حفر صائد الكلاب بيده القويتين حفرة عميقة كى يدفن فيها ملابس الجثة التى تلوثت بالدماء .. وبعد أن احتفظ ببعضها لنفسه . وبخفة ورشاقة قفز على ظهر عربته وأخذ يجفف عرقه ويتنفس بعمق .. ثم فتح لفة بها طعام أخذ يلوكه بأسنانه ثم أرسل سوطه ليلهب ظهر بغله الأسود .. ولينطلق به بعيداً وإلى الأمام .

١٩٦٧

مصر الجديدة

(٥)

لحظة إهتزاز

لحظة إهتزاز

ظل طوال الليل مستيقظا فى فراشه منتظراً غده .. غدا أول أيام العيد .. غداً سيزور أباه .. أحس برهبة وهو يفكر فى هذه الزيارة أنسته معها فرحة إستقبال العيد .. حتى حلته الجديدة .. سوف يرتديها .. ليس من أجل العيد بل من أجل اللقاء ، إنه لم ير أباه قط .. بل لا يذكر أنه رآه .. صورة قديمة لرجل مع أمه .. قيل له .. هذا هو أبوك! .. غير أنه واصل الأسئلة .. فما كان يحظى إلا بدموع فى عينى أمه .. ودعاء من فم جده .. ثم يعود مرة أخرى .. يسأل : أين أبى ؟ .. إنه هناك فى السماء .. حيث يرعاه الله بنفسه.

أحس بحركة خارج الحجرة .. تبعتها دخول أمه لتلقى عليه نظرة .. غير أنه استسلم لنوم عميق مصطنع .. أحكمت الأم وضع الغطاء على جسده .. وتركته في حرص حتى لا يستيقظ .. غير أنه سارع إلى نفض الغطاء وتطلع سريعاً بعينيه الصغيرتين نحو النافذة .. نحو السماء ليرى أباه .. أو ليرى الله نفسه وهو يرعى أباه .. عيناه تستجديا الشمس للشروق وأذناه تتحفذان لسماع الآذان .

إنطلقت بهم السيارة رغم زحمة العيد .. تاركة شارع إثر شارع .. وفرحة تلو فرحة .. وصعدت بهم فى طريق طويل .. ثم انحرفت شمالاً هابطة مرة أخرى مسرعة فى سيرها حيث توقفت .. فيهتز كل من فى السيارة .. فتتطلع عيناه الصغيرتان نحو الفضاء والأرض والصمت .. فتبرز له نصب وشواهد .. فيتسائل؟ .. القبور والأضرحة والتراتيل وحركة تشبه

العيد .. والسواد .. السواد المنتشر بين النساء .. غير أنه يهتز للمرة الثانية .. عندما يسمع صراخا .. وصندوق محمول على الاعناق .. ونساء تولول وتصرخ .. وهتاف يعلن أن الله واحد .. وأن الله هو الباقى .. أحس بالبرودة كلها تسرى فى جسده .. وأن هناك أشياء غامضة تجرى أمامه .. فيتسائل ؟ .. غير أنه لا يحظى بأى جواب! .. بل يواصلون الطقوس .. الأرض تفتح .. فتبرز له غرفة تحت الأرض .. والصندوق يوضع ويفتح الغطاء .. ويستخرج جسماً ملفوفاً فى قماش أبيض مصحوباً بالصراخ .. بهتاف الله الواحد .. وترتيل القرآن .. ثم يوضع الجسد على أرض الحجرة الصغيرة الغائرة فى باطن الأرض .. ثم تغلق .. غير أنه لم يستطع أن يعرف إن كان جسد رجل أو امرأة ..

اهتز جسده للمرة الثالثة .. عندما انتزعته أمه من وسط الحشد وبعد أن أخذت تبحث عنه .. ثم واصل السير معها .. شارد العقل ليجد جده جالساً بجوار أحد القبور ومعه أقاربه .. خالته توزع الفطير والفاكهة .. وقرآن يرتل .. فطلب منه الجلوس بجوار جده .. مستسلماً صامتاً شاعراً بالحر والضيق إذاء حلته الجديدة .. غير أنه لم يتسائل أين أبى؟ .. بل أكتفى بالنظر إلى أمه كأنما يعاتبها .. لقد كذبت عليه .. إن والده ليس فى السماء .. وليس بين يدى الله كما إدعت أمه .. بل فى الأرض .. فى أقصى أعماق الأرض !..

غير أنه لم يستطع أن يواصل أكل فطيرته التى وضعت فى يده .. رغم جوعه .

١٩٧٠

مصر الجديدة

(٦)

لحظات..مع الفجر

لحظات..مع الفجر

ظل مستلقياً علي الأرض بلا أدنى حركة .. لا يقول شيئاً ولا يقال له شيء ولا يفكر في شيء .. فليس لديه شيء ما يشغله أو يؤرقه .. فتلك هي لحظات السكون والصمت الأبدى .. إذ إن تلك اللحظات هى عالمه .. أما ما عداها فهو العدم.

إنه يدرك تماماً وبوعى شديد .. أن من خلال تلك اللحظات وبها فقط يستطيع أن يطرق أبواب الأبدية .

فتح عينيه ..فصدمه الوجود بوجوده أولا ثم بروعته ثانيا .. فتابع النظر والتأمل في هذا الوجود الذى يحمله ،، ويحمل السماء والأرض وما بعدهما وما بينهما أيضاً .. فأدرك أن تلك هى اللحظة التى ينتظرها كل يوم ومع مطلع كل فجر .. إنها لحظات الفجر .. لحظاته مع الفجر إنها لحظات لقاء الوجود .. وتلك هى بداية الإدراك .. ذلك لأن الوجود بدأ يتمدد أمام عينيه وظل يتباعد عنه وفى بطء شديد .. ثم بدأ فى التصاعد إلى أعلى .. إلى أقصى نقطة يستطيع أن يصل إليها ويقف عندها .. فأدرك إن الوجود ذاته لا يستطيع أن يتجاوز حدوده المرسومة له .. فتجسم له البعد الذى يفصله عن الوجود .. فشعر بالألم .. لأنه أدرك كم هو وحيد فى هذا الكون .. رغم عظمته.

حرك رأسه ناحية اليمين .. فوجد الشمس عن يمينه .. ومال بها ناحية اليسار .. فإذا بالقمر عن يساره .. فاستشعر قدر نفسه وعرف مكانه فى

هذا الوجود .. تماما كما حدده لنفسه . رفع يداه لكى يحجب عن عينيه الشمس .. فحجبت على الفور .. ولكن القمر وبدلاله المعهود قد أرسل ضوءه متغلغلاً الأيدى الطاهرة البيضاء مضيئا بذلك وجه صاحبه والذى استسلم بدوره لشعاع الضوء هذا .. فأغمض عينيه .. فإختفى وتوارى من أمامه الوجود وما يحمله .. وسرت فى جسده رعشة خفيفة لذيذة بسبب شعاع القمر الذى سال على وجهه مثل اللبن الأبيض .. فتركه يغسل وجهه ليكون أكثر إشراقاً ولمعاناً .. ولكى يعيد إليه نضارة وجهه ولكى يمسح عنه وجه الزمن .

وبينما وهو فى هذه الحالة .. سمع خطوات ثقيلة الوقع والصدى على الأرض .. خطوات تقترب منه .. فقد استشعر .. دون أن يدرى .. إذ هو مغمض العينين .. أن هناك من يتحدث إليه بكلام غير مفهوم وبلغه غريبة عنه .. غير أنه أيقن .. أنه طالما سمعها .. ولكنها .. لم تعد مفهومة بالنسبة إليه الآن .. فلماذا ؟ .. لم يدر! .. بل لم يفهم أيضاً! .. وهو الذى يفهم كل شىء .. غير أنه لم يحزن .. بل ارتسمت على وجهه إبتسامة ساخرة .. أشعرته بالسعادة المجهولة التى لا يدرى من أين تنطلق لكى تغمره بهذا البشر والحبور.

أخرج لسانه لكى يرتشف من على فمه قطرات من سائل اللبن الأبيض الذى أرسله القمر .. إنه .. شهد القمر .. الذى يرتشفه كل صباح ومع كل مطلع فجر جديد ..

كل تلك السلسلة المستمرة من الطقوس الداخلية .. طقوس السعادة الداخلية ونشوة إلتقاء عالمه الداخلى مع عالمه الخارجى .. كل تلك العمليات الحسية المستمرة بين الوصل والتوحد .. بين الإنفصال والإندماج .. بين العزلة وتشابك ذاته مع ذات الوجود .. لقاء الأرض والسماء .. بل وما بعد السماء .. متجاهلاً بذلك .. ربما عن وعى .. وربما عن غير وعى .. تلك

الخطوات الثقال وتلك اللغة الغريبة والغير مفهومة .. غير أنه أدرك وبوعى .. أن تلك الخطوات ذات الأصوات واللغات والهمهمات والنبرات المشبعة بروائح غريبة سماوية .. تعود أدراجها وتبتعد عنه شيئاً فشيئاً .. كأنها أدركت وبنفسها أن مكانها الصحيح ليس هنا .. ورغم ذلك كان يجهل المصدر الذى انبعثت منه : أهي من السماء هابطة .. أم من الأرض صامدة .. غير أن كل ذلك .. يتساوى بالنسبة إليه لآن .. فلا شيء يهم الآن ما دام يعيش لحظات الوجود والنشوة الإلهية الإنسانية الحسية.

لا شيء لديه يعادل إغلاق عينيه وإبتسامته المعهودة تحت القمر..

هذا هو الوجود .. وهذا هو السر الإلهى .. وهذا يكفى .. أما ما عدا ذلك فهو هراء .. هراء الوجود المحسوس .. أما هو فهو الوجود الغير محسوس ..

أحس بالعطش .. ففتح فاه وعلى الفور تجمع ندى الصباح الباكر المصبوغ بحمرة الشمس فى فمه .. راويا بذلك عطشه .. ولكنه استشعر بشيء من الصداع يطرق رأسه .. وأدرك فى تلك اللحظة أيضاً .. أن يداه مازلتا مرفوعتين .. إحداهما للشمس الأخرى للقمر .. مع أنه قد رفعهما للشمس فقط .. فأدرك كم هو عادل ومنصف بين الشمس والقمر .. فأنزل يديه بجانبه وإنتظر أن يبتعد عنه ويفارقه هذا الطرق المتواصل .. هذا الصداع اللعين.

لاشيء يضايقه ويسبب له الضيق سوى ذلك الصداع الذى يأتيه بعد لحظات الوجود الحسى .. ومع حلول الفجر.

شيئاً فشيئاً .. يتمدد بجسده المسجى بوقار على الأرض .. فيشعر بالحيز الكبير الذى يشغله جسده المقدس وهو على الأرض .. وتحت الشمس والقمر والسماء وما بعدهما .. إنه هو . وهذا هو جسده وهذا هو الفجر اللعين

المسبوغ بحمرة الشمس ينتهك جسده ويكشف عن حالته الوضعية .

حاول أن يميل ذات الشمال فلم يستطع .. حاول أن يميل ذات اليمين فلم يستطع أيضاً .. فابتسم .. وظل مكانه لا يتحرك .. ولا يقول شيئاً ولا يقال له شيء .

غير أنه لاحظ .. أن تلك الكلمات الطلسمية التى كان يسمعها قد أصبحت أكثر وضوحاً وسمعاً وفهماً بالنسبة له .. إنها كلمات مألوفة لديه .. كلمات تأسيسية .. روتينية يسمعها كل يوم مع الفجر ومع بداية كل صباح ..

- قطع الحشيش وقطعت الخمرة اللى طيرت عقلك .. والله ..

اهتز جسده .. واهتزت روحه أيضاً لهذا القسم ولهذا الاسم العظيم .. لكنه أمعن وأصغى وتابع السمع ..

- والله .. ما حد حيخرب بيتك غير الخمرجية والحشاشين اللى حواليك ..

ابتسم فى سعادة وأحس بالنشوة وبالخمول السعيد وهو يفك تلقائياً هذه الطلاسم .

- ضيعت فلوسك على المساطيل وإنشاء الله حتموت شحات .. بكره أفكرك ..

ابتسم مرة أخرى .. وشعر فى تلك اللحظة بفيض غامر من السعادة الداخلية يجتاحه ويشمله كلية .. جسداً وروحاً .. إذ أنه على أعتاب الدخول والنفاذ إلى مملكة النعاس والنوم العميق ..

وأيضاً .. لأن هناك من هو معه فى هذا العالم .. وإنه لم يعد وحيداً فى هذا الوجود .. وبعد لقائه المتجدد مع الفجر ..

ساد الصمت .. ولم يعد يفكر فى شىء أو يقال له شىء .. وسرعان ما أغمض عينيه .. فتوارى من أمامه الوجود .. الوجود الذى بدأ فى النزول عليه شيئاً فشيئاً .. وفى بطء شديد حتى إحتواه كلية .

وصار التوحد ..

وساد الصمت ..

وسمع بوضوح .. صوت شخير متواصل ذا إيقاع رتيب .. رطب ،، ممل .. يأتى من بعيد .. ولكنه يأخذ فى التلاشى شيئاً فشيئاً .. ولم يعد يسمع منه سوى .. صدى الصوت ..

١٩٩١/٨/٨

مدينة نصر

(٧)

لحظات.. مع خواطر الغضب

لحظات.. مع خواطر الغضب

إشتد عليه القلق والضيق والغضب .. وترك نفسه لذاته .. تصارعه ويصارعها .. يلعنها وتلعنه .. حتى أيقن بأن الجحيم لا يخرج عن هذه الغرفة الصغيرة .. وأن أقسى أنواع العذاب هو مواجهة المرء لذاته . أشعل سيجارة أخرى .. غير أن مرارتها في فمه دفعته إلى أن يلقيها بعيداً عبر النافذة .. مضيئة بذلك مسار سيرها .. غير أنها سقطت على جبين شيخ يمر مراً عابراً في الطريق فلعن أيضاً الدنيا ومن عليها .. ووصلت اللعنات وأصواتها ونبراتها إلى أذنيه .. فشعر ببعض السلوى والعزاء .

أن تتركه زوجته .. ذلك شيء قاس ومرير .. أما أن يتركها هو .. فذلك أمر لا قيمة له ولا وزن له على الإطلاق . إنه سيد كل شيء .. إنه يملك كل شيء .. ما عدا غضبه .. فالغضب هو الذى يحدد له سلوكه .. وقد تعود على ذلك .. حتى استعذب هذا السلوك وأصبح لصيقاً به .

كل شيء لديه وفي يديه .. وكل شيء ليس في يده ويفلت منه .. ما دام قد فقد الأمان .. والأخطر من ذلك إنه شعر فعلاً .. بإنه فقد الأمان من داخله .. وفارقه النوم الهادئ .. إن شيئاً ما ينفجر بداخله .. فيهزه كالبركان هزاً متواصلاً .. شيء أشبه بالزلازال الذى يهدم كل شيء .. حتى أعماق النفوس .. إنه وليد الزلزال النفسى الذى أصابه . فليس فرار الزوجة هو الذى زلزل كيانه!

لقد كان هذا الحادث مجرد الشرارة التى سمحت لكل أفكاره وغرائزه

الشيطانية المحبوسة أن تنطلق إلى أقصى درجة وبأفظع صورها إلى طريق لا يعلم إلا الله مداه وغايته .. إنه لا يعرف الآن إلا شيئاً واحداً .. إنه يستطيع أن يحرق العالم الآن .. العالم الذى خلقه من العدم .. والذى تمرد أيضاً عليه الآن وفى لحظة من لحظات غضبه . إن شركاته الكبرى وأعماله التجارية والهندسية هى عالمه العلوى الذى رُفع به إلى مصاف أعمدة المجتمع .. ورفع معه اسم شركاته ومقاولاته .. ومضارباته أيضاً فى الأسواق العالمية .. إنه أقوى اسم يسمع الآن فى السوق .. وفى المجتمع أيضاً . إنه يدرك تماماً ويعى جيداً .. بأنه لا يدين لأحد بشىء .. إلا لذاته ولعرقه وكفاحه .. أجل كفاحه .

إعتدل فى جلسته وهو فوق السرير .. فوجد أن فردة حذاءه مقلوبة .. فأزاحها بقدمه وفى غضب .. إنه يتفاءل .. ويتشاءم .. ويستخدم الرحل من الغجر لمعرفة الغيب .. بذلك يؤمن وبذلك عاش حياته وبذلك مازال يعيش ..

لم يعد يدرى ما الذى يريده الآن فى هذه اللحظة .. خلع قميصه وألقى به واستلقى على سريره نصف عار .. ومد يده كى يحتسى جرعات من زجاجة الوسكى .. سلوته الوحيدة فى تلك الساعة فى تلك اللحظات الجهنمية .. لحظات الغضب الذى يعصف به الآن .

منذ الصغر .. كان يشعر بتلك اللحظات .. غير أنه كان يجابهها ويداويها بالجرى فى الطرقات من العتبة إلى الحسين .. من سليمان باشا وحتى الزمالك .. كان يجرى جرياً متواصلاً محموماً .. ،كان إذا أدكه التعب استراح تحت شجرة ويتأمل المارة .. المنازل .. السيارات .. النساء .. وملابس العابرين .. كل شىء كان يشده .. يقهره .. فلا يجد سُوى الاسترخاء والأحلام .. إنه يتحسس السيارات ويتمنى ويسبح ويدعوا الله سراً وجهراً .. رغم أنه لم يسجد له قط .. أن يمتلك أن يمتلك شيئاً .. أى شىء .. إن منظر تابلوه السيارات وخاصة المرسيدس .. كان يسميها تابلوه الطيارة ..

إن منظر الرجال الأثرياء بملابسهم وخاصة الكرفتات والأحذية اللامعة .. كان ذلك .. كان كفيلاً بجعله محموماً .. فلماذا لا يمتلك تلك الأشياء .. لماذا يحرم هو من كل شيء! ..

إن ملابسه مرقعة .. إن حذاءه مكشوف للهواء ، كما كان يسميه دائماً في لحظات صفاءه القليلة ، إنه عار من كل شيء .. من كل شيء ما عدا ذاته .. ولكن كان هناك شيئ غامض في حياته .. وفي خيالاته أيضاً .. إنه سوف يمتلك .. إنه يري كل شيء .. رغم ضباب أيامه التعسه .. كان هناك دائماً وأبداً .. أمل وإحساس بغد أفضل .. وسعادة الغد الهلامية التي سوف تأتي .. إنها أمله عند المشرق .. إنها حلمه عند الغروب .. وتسابيحه عندما يحل الليل .. إنها الأمل .. سعادة الأمل .. ولذلك تمسك بحياته . لم تطرق فكرة الإنتجار على خاطره قط .. مثل صديقه الذي قفز راقصاً إلى النهر لكي ينعم بأحضان جنية النهر ولكي يهرب أيضاً من الفقر.

فالحياة .. ونبض الحياة كان دائماً ذا صوت عالي في وجدانه وإحساسه وفي جسده أيضاً .

كان من أذكى طلاب المدرسة .. وكان يذاكر لزملائه .. ليس من أجل المساعدة فقط .. بل من أجل المنح التي تقدم له .. بنطلون قديم .. عشاء .. جسد خادمه .. كان كثيراً ما يصرف أموره جيداً وبوعي شديد . فلا شيء يستطيع أن يوقف تيار ونبض الحياة في داخله.

كان يؤمن إيماناً راسخاً .. من أن الموت لا يستطيع أن يصل إليه أبداً .. ليس لأنه مخلد .. بل لأن القدر سوف يتركه للحياة وللغد .

هكذا كان يفهم العدالة ..

ها هو ذا مستلق الآن على السرير .. دافعاً عن عقله كل الخواطر واللحظات الخاطفة التي تبرق في ذاكرته .. وكلما أغمض عينيه .. برقت

فكرة أخرى .. فالذكريات هى البركين التى تنفجر من داخله .. أما الغضب فهو رد الفعل المنعكس تجاه كل البراكين .. والزالزال الأكبر .. هو الذى يعيش على أنقاضه طوال تلك السنوات .. إن حياته ما هى إلا حياة البراكين والزلازل .. ومهما حدثت ثورة البركان .. ومهما كانت فداحة الزلزال .. فهو صامد .. لا يهتز ولا يتأثر .. رغم أنه مستلقى فى فراشه .. نصف عار .. نصف مخمور.

الماضى .. وزوجته .. زوجته .. كانت حلم بالنسبة إليه .. كانت فى السماء السابعة بالنسبة له .. أما الآن .. فهى فى أقصى طبقات الأرض .. إن هذا التمرد الذى بداخله دائماً .. هو الذى يدفعه إلى أن يحصل على ما يبغى .. ثم يرتد يتقيأه ويتمرد مرة أخرى عليه.

إنه يدرك .. بل يقسم فى أعماقه .. بل يصرخ هاتفاً .. من أنه لا يدرى شيئاً عن سلوكه المتمرد هذا! .

إن مهر زوجته الذى دفعه هو مليون جنيه .. وضعه ببساطة تامة على المائدة أمام والدها وأمام أمها السويسرية .. لا لشىء .. إلا لكى لا يسأل عن هويته وأصله وعائلته أو حتى عن مصدر ثروته إنه .. بلا عائلة .. بل حتى بلا هوية .. بل لا يذكر شيئاً عن هذه العائلة .. أحقاً كانت له عائلة! أهذا الفتوة الذى كان يعيش بذراعه ونبوته .. هل حقاً والده ؟..

أحقاً إن بائعة الليمون التى كانت تجلس تحت الشجرة .. هل هى حقاً أمه ..

كانت كل الأمور لديه تتساوى .. ما الفرق .. أن يكون والده فتوة أو شحاذاً أو حتى قواداً ؟ .. أن تكون تلك المرأة والتى تدعى أمه بائعة ليمون أو خادمة أو حتى .. فلا شىء يهم .. إنه على حق .. إن كل شىء يستوى لديه .. إنه يذكر تماماً .. عندما كان يجلس بجوار أمه كى يأكل .. ويجلس بجوار

أمه أثناء بيعها الليمون .. وينام بجوارها عندما يضاجعها ذلك الفتوة .

فأى ذكرى يذكرها لهذا العالم دون أن يتمنى حرقه . إن ماضيه .. هو الجحيم .. وذكراه هو اللعنة الأبدية والتى لا تفارقه لحظة واحدة .

يذكر تماماً .. عندما وصل إلى مرحلة من عمره .. أخذه مؤذن الجامع إلى الكتاب حيث تعلم .. وقرأ .. « اقرأ بسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق ... » فقرأ وتعلم وتفوق .. أنهى الإبتدائية ثم ما بعدها ثم ماتلاها إلى الجامعة .. إلى الهندسة .. تماماً كما أراد .. تماماً مثلما خطط .. لنفسه وبنفسه . وشيئاً فشيئاً .. كان يزداد رصيده فى دفتر البريد يوما بعد يوم . لقد كان يرى بل كان يؤمن .. أن كل شىء .. وكل السبل والطرق لديه مشروعة ومباحة .. هكذا كان يرى عدالة .. عدالة التعويض .

كان لا يخرج من جحر أمه إلا مع أول ضوء لطلوع الشمس .. هكذا كان يسلك طريقه . كان لا يعود إلى جحر أمه إلا مع حلول الظلام الحالك .. هكذا كان يسلك طريق عودته .. ليلاً .

كان يعرف تماماً ما الذى يريده ، وما خطواته السابقة وإلى أين قادته .. كان يعرف ما هى خطواته اللاحقة ..

سئل ذات مرة .. أين يسكن ؟ .. فقال عند جده فى الزمالك .. وفعلا كانت المسافة بين بولاق والزمالك يمكن أن تعبر فى لحظات من شاب مثله .. كان عنوانه هو عنوان خاله بواب عمارة فى الزمالك .. ومن ثم كانت البطاقة تحمل ذلك العنوان .

أما ملابسه فقد كانت تدبر من وكالة البلح أو من المنح التى تقدم له نظير كتابة الأبحاث أو الرسم الهندسى . شريط طويل من الذكريات المريرة التى تتدافع إلى عقله بل إلى روحه أيضاً وبدون أى توقف .. حتى يلفظها صدره غضباً .

سوف يتحدث البعض .. بأن زوجته قد تركته وتركت أمواله وبخاصة بعد أن عرفت أصله وماضيه . ولكن الشيء المؤكد بالنسبة له .. أن ماضيه مجهول بالنسبة للجميع .. لا أحد يعرف ماضيه أوأصله .. فكل شيء قد دفن وإلى الأبد .. وخاصة بعد أن ماتت أمه وهى تلعنه لهروبه منها وبعد قتل الفتوة الذى كان يمثل والده غدراً .. لقد كان أكبر مبلغ تقاضاه فى حياته فى ذلك الوقت .. مائة جنيه .. دفعة واحدة ، وضعت فى يده نظير ذكر مكان غرزة كان يتردد عليها ذلك الفتوة .. والذى كان يدعوه .. والده . لقد شجت سنجة ذلك الفتوة إلى نصفين .. وفى إحدى الغرز المنتشرة فى الجبل .. وجدت جثته .

الماضى مؤلم والحاضر مرير .. والمستقبل مجهول الهوية بالنسبة له .. وذلك ما يجعله فى حالة تحفز دائم . إنه يعيش حياته فى حرب دائمة .. فى حالة قلق متواصل .. واللعنة اللعنة على هذا العالم الذى وجد هكذا .. واللعنة على هذا العالم والذى وجد فيه نفسه هكذا أيضاً .

نظر إلى زجاجة الوسكى فأمسك بها وأفرغها على الأرض .. كان فى يوم لا يجد قوت يومه وليله وغده .. أما الآن وفى هذه اللحظة فهو يسكب الوسكى على الأرض والسجادة وحذائه ..

سقطت الزجاجة من بين يديه عندما أفلتها من بين أصابعة .. وظل يتابعها وهى تتدحرج على الأرض وتصطدم بكل شيء يقابلها وظلت تلف حول نفسها .. حدق فيها .. فتراءت له مائدة الروليت التى كان يقف أمامها والكرة تدور دورتها السريعة .. حتى تقف .. وعندما كانت تقف كان يربح مائة ألف جنيه . كان يتردد على صالة القمار مرة واحدة فى السنة ، وكان يلعب أيضاً مرة واحدة فقط .. رمية زهر وحظ . لم يخسر فى حياته قط . بل ليس هناك من أمنية لم يحققها لذاته قط .

كان لديه كل شيء .. وكل شيء ليس لديه لأنه يفقد لاشعورياً الأمان .. والنوم الرقيق .. وحين يشعر بعدم الأمان .. يشعر بالقلق ويشتد عليه فيود حرق العالم . هنا .. وفى هذه الغرفة الصغيرة .. يعيش جحيمه الذى لا يطاق.

كان على يقين .. من أن الذى إستطاع أن يهجر أمه ويكون سبب موتها .. والذى باع والده .. لا يهتز عاطفياً أو عقلياً .. لكون امرأة .. كانت فى يوم من الأيام زوجته .. قد تركته .. سواء تركته أو ربما .. فرت بعيداً عنه .. فذلك شيء لا وزن له على الإطلاق .

شعر بالوحدة وبعد أن شعر بالملل أيضاً .. رفع سماعة التليفون .. طلب سرعة تحضير السيارة .. نهض .. ثم ارتدى ملابسه .. وضع قدميه فى الحذاء .. غادر الغرفة .. الغرفة الصغيرة والتى شهدت بدايات تطوره الروحى والتى لم يتخل عنها بعد .. غير أن دخان سجائره لم يتلاش بعد . وسرعان ما انطلقت به السيارة .. سيارته الفارهة .. تاركة الزقاق .. حاملة معها خواطر غضبه إنطلقت سريعاً إلى طريق لا يعلمه إلا هو ..

١٩٩٢/١١/١٠

مدينة نصر

(٨)

علاقات خاصة

علاقات خاصة

ذات يوم قالت له أمه فى لحظة غضب .. « ملعونة تلك البطن التى حملتك وليلتهم الطاعون ذلك الزراع الملعون الذى وضع بذرتك فى الرحم » .. ظلت تلك الكلمات تشغل فكره يوماً بعد يوم .. وتتعمق فى ذاته طوال سنوات عمره .. فأدرك أنه يتقوقع داخل ذاته يوماً بعد يوم حتى أحس بالوحدة .. فشعر بأنه وحيد فى هذا العالم.

إنها لا تفصح له عن أى شىء .. كل شىء مبهم وغامض .. أيكون ابن سفاح ! ذلك محال لأن والده هو شيخ القرية حامل كتاب الله .. وله سمعة طيبة فى قريته وفى القرى المجاورة .. صمت قليلاً ثم تابع حواره الصامت مع ذاته .. غير أن ذلك لا وزن له مع عالم المرأة .. حتى ولوكانت أمه .. أليست أمه امرأة !

لم يستطع أن يطرح معنى هذه اللعنات على أحد من معارفه خجلاً وخوفاً .. فلماذا تكرر أمه دائماً هذه الكلمات له !..

إن الخوف ملك عليه ذاته من سؤال أمه .. خوفاً من إنتظار الإجابة المصيرية المهينة ..!

إن الخوف ملك عليه ذاته من سؤال والده الشيخ .. خوفاً من رد فعله العنيف وإحتراما له .. أجل إن الخوف قد منعه من معرفة حقيقة ذاته ... ذاته الدنسة .. لقد أوشك أن يكره نفسه حتى الموت .. غير أنه أدرك أن سر تلك الكلمات يكمن فى الماضى .. وأنه ذاته هو السر نفسه ونتيجته الأليمة

الدنسة .. ذهب إلى خاله والذى كان يعمل قضاياً شرعياً .. وحاول أن يبوح له بعذابه الذى يكمن فى داخله .. غير أن خاله حاول أن يخفف من مخاوفه بكلمات هلامية ... ولكنه أصر على معرفة الحقيقة ... حقيقة تلك الكلمات المريرة التى إلتصقت بعقله ورسخت فى وجدانه .. طلب من خاله أن يكشف له بصراحة عن هذا السر . فلم يحظ إلا ببعض كلمات ذادت الأمر تعقيداً .. إن أمه لها ظروف خاصة ! .. فما معنى ذلك؟ .. أليس هو أبن ذلك الشيخ الصالح! .. أليس من صلبه ! .. أليست تلك المرأة أمه! .. قال له خاله فى صوت حزين .. لا تفتح أبواب جهنم .. دع الماضى ودع الموتى يرقدون فى سلام ولا تفتح قبور الماضى .. أدرك أن هذا العالم بحالته وبغموضه عالم لا يطاق .. لكنه أصر على معرفة هذا الماضى مهما كان .. غير أن خاله أجابه بالصمت .. وتركه وإنصرف .. طالباً منه حل هذا اللغز مع أمه .

احس أن مواجهة أمه شيء لا قبل له بها .. وأدرك أيضاً أن الصمت وعدم معرفة حقيقة تلك الكلمات أمر لا يمكن أحتماله يوماً بعد يوم ..

قابلته فى الطريق ضاربة ودع .. امرأة سمراء جميلة فأحس بأنه يشتهى تلك المرأة التى ترتدى العقود والخلخال وتحمل الودع والتمائم .. صحبها إلى غرفته ومارس معها الحب حتى الصباح .. لاحظت تلك المرأة حزنه .. فأخبرته فى بساطة .. أن سر عذابه يكمن فى كلمات أمه ! .. فأصيب بالهلع .. وظل يتفرس وجه تلك العرافة الغجرية العاهرة التى تكشف الغيب والمستقبل للناس .. قالت له .. إن أردت أن تعرف كل شيء عن نفسك فلا تخشى المواجهة ولا تحمل أى وقر للماضى وجحيمه الذى لا يطاق .. أى جحيم تقصد ! جحيم كلمات أمه؟ .. جحيم كلمات خاله المبهمة! أم جحيم كلمات تلك العرافة!.. أم جحيم العالم الذى ساقه قدره إليه! ..

إنه لم يبلغ الخامسة والعشرين من عمره .. خدم مع رجال الصاعقة فى الجيش .. ثم صرح بعد الحرب فاشتغل مدرباً للجودو فى نادى قريته

.. كان التدريب هو الذى يستحوذ على حياته بالكامل أما ماعدا ذلك فهو التفكير الدائم والمستمر فى كلمات أمه ..

وضعت العرافة يدها برقة على وجهه وقالت له .. إرمى بياضك .. إذا كنت لا تخشى شيئاً .. ولا تخشى وقع كلمات الماضى عليك .. انتزع سروالة من على الأرض وأخرج خمس جنيهات وضعها فى حجر ضاربة الودع .. والتى لم تهتز فرحاً لهذا المبلغ .. إن كشف الماضى لا يمكن أن يساوى هذا المبلغ الذهيد .. إن الماضى لا يمكن أن يساوى هذا العذاب الذى يحرق صدره وقلبه وعقله حرقاً .. خلع ساعته ووضعها فى يدها .. فأشرقت ملامح وجه العرافة وهى تفحص هذه الساعة .. فتضعها على أذنها تارة .. وتلبسها تارة أخرى .. وساد الصمت .. وكاد أن يحترق فى لهيب هذا الصمت الخانق .. فأدركت العرافة ذلك .. قالت له بصوت أنثوى رقيق .. لقد صبرت منذ أن كان عمرك ست سنوات على كلمات أمك .. ألا تستطيع أن تصبر لحظات حتى أنهى فرحتى بهذه الهدية الثمينة .. صمت وإنتظر .. قالت .. إن تلك المرأة التى وضعتك هى أمك .. وإن ذلك الشيخ الذى يحمل لقب والدك ليس بوالدك .. فإنت وأمك قد أوجدكما مصدر واحد .. رجل واحد استطاع أن يجعلك إبناً وأخاً ملعونا لتلك المرأة .. وإن العدل قد ساد .. لأن الرجل الذى قتلته خطأ بين الممرات الجبلية أثناء الحرب ليس إلا ذلك الرجل الذى ساعد على إنجابك من قبل قوى لا قبل لنا بها ... كانت كلمات تلك المرأة .. تشعل فى عقله نار الفكر والحيرة وتشعل فى صدره نار الهلع والغضب .. ولكنه ظل فى مكانه لا يميل شمالاً ولا يميناً .. ثم تابعت تلك المرأة كلماتها .. أتدرى من يكون ذلك الرجل الذى أنجبك ! .. كاد أن يصرخ فى وجهها .. أصمتى أيتها العاهرة الغجرية .. ولكنه أحجم فصمت .. قالت العرافة .. أعوذ بالله وأتقى غضبه .. إنه الشيطان .. إنك ابن الشيطان .. فكر لحظة فى سحق تلك المرأة التى تهذى بهذه الكلمات أمامه .. أى شيطان ذلك الذى أنجب أمه

والذى جعل من أمه حبلى به منتهكاً فى قسوة ودعارة محرمات الأديان والبشر .. استعرض وفى سرعة غير عادية كل القصص التى سمعها عن الشياطين والعفاريت والإسياد والأرواح .. غير أن العرافة قطعت عليه فكره ..وقالت إن أمك لا ذنب لها .. إنها تكفر فقط من تلك الخطيئة التى قدرت عليها .. وتنفس عن ذاتها بتلك العنات القاسية التى تقذفها فى وجهك .. فتحرقك حرقاً .. إن الشيطان قد ظهر لأمك فى أجمل صورة له قبل زواجها .. فى صورة رجل جميل .. ولكنها منعت نفسها عنه .. غير أنه عاد لها قبل لحظات من زفافها على ذلك الرجل الذى قتلته .. فاستسلمت له وهى فى حالة من الشبق .. وعندما حانت لحظة زفافها على رجلها .. أدرك إنها لم تكن بكراً .. فأراد قتلها غير أن الشيطان أظهر له ذاته المجردة .. فأصاب الرجل بالرعب وخرج مسرعا إلى الجبال والدروب هارباً وتائهاً فى البرية .. يسيطر عليه الرعب حتى اعتقد الناس أن الرجل قد أصابه مس .. فأصبح طريد القرية ومطارد من قبل أطفال القرى .. يتبعه ظل شيطان قذر .. يحذره من العودة .. حتى قتل على يديك..

إصبحت تلك الأحاديث الغريبة شيئاً يفتح له طريق جهنم .. غير أنه شعر برغبة شديدة فى مضاجعة تلك العرافة .. فضاجعها مرة أخرى ولكن بشكل سادى همجى حتى أطلقت تلك المرأة صراخها المستمر من قسوته الغير مبررة .. ولما علا صوتها خنقها وإسترد ساعته والخمس جنيهات .. ثم ما لبث أن إنصرف تاركاً تلك العرافة الغجرية جثة هامدة لا تحمل شيئاً سوى الودع والعقود والخلخال والتمائم .. غير إنه ما لبث أن وجد خاله فى وجهه فإنهال عليه ضرباً .. وتساءل عن سبب عدم إبلاغه من أنه ابن الشيطان وإن أمه ليست سوى امرأة نكحها الشيطان فأثمرت طفلاً ملعونا .. قال له خاله والدم يسيل من وجهه .. كنت أشفق عليك لإنى لا أريد أن تدرك أنك ابن عالم سفلى غير بشرى .. إنك ثمرة زواج أمك بشيطان ملعون .. إن الشيخ

الذى قد تبناك لانك بلا ذنب فى كل ما حدث .. لقد أحاطك دوما بالدعاء والتسابيح وقراءة القرآن .. ولكنك ارتكبت الشر .. والزنا .. والقتل .. فتخلى عنك .. ظل يركل خاله فى قسوة .. وتركه بين الحياة والموت ..

ذهب رأساً إلى ذلك الشيخ .. فوجده يقرأ القرآن فى الجامع .. فلم يستطع الدخول للحظات .. غير أنه دخل .. وسار إلى الإمام وسط لعنات الناس لإنه دخل المسجد بالحذاء .. وسحب ذلك الشيخ من لحيته وصاح به .. لقد كنت تعلم جيداً أننى ابن الشيطان .. لقد أنكرتم علىّ أن أعرف ماضى أيامى المعذبة .. لقد صمتم طوال كل تلك السنوات وكنت أتعذب من خلال تلك اللعنات التى صاحبتنى بها أمى طوال سنوات جحيم عمرى .. أننى لست مسؤولاً عن ميلادى .. ولست مسؤولاً عن نكاحها من الشيطان لست مسؤولاً عن كونى نطفة الشيطان .. لماذا لم تقل لى يوماً إنك لست والدى .. لماذا ابتعدت عنى كل تلك الأيام المريرة .. كنت تظن أن الصلاة وقراءة القرآن وترتيل الفلق ورب الناس يمنع عنى هذا الرجس الذى نزل بى .. أنا ابن الشيطان .. أنا ابن الشيطان الذى تعوذون بالله منه .. ولكن الآن كل شيئ قد استبان .. إن ابن الشيطان لا يملك إلا أن يكون شيطاناً مثله .. وأمسك بمصباح يضيء ساحة الجامع وقذفه أمام المنبر .. فلا تلبث أن تشتعل النيران فى المسجد .. بينما يتراجع الشيخ إلى الخلف حتى احتمى بالمحراب شاهداً على احتراق المنبر .. وبينما تتصاعد ألسنة النيران .. سارع عشرات المصليين ورواد فجر الصلاة بالهجوم على الشاب وضربه ضرباً هستيرياً على منتهك حرمة بيت الله حتى سقط الشاب يتخبط دمه على أرض المسجد بينما كان الشيخ يذود عنه هذا الهجوم العنيف الطاغى ..

لم يدر ماذا حدث بعد ذلك .. فقد وعية للحظات .. لساعات .. لأيام .. لم يدر شيئاً ..

إستيقظ شيئاً فشيئاً على يد ذلك الشيخ الصالح .. وهو يوقظه فى رقة

متناهية .. قم ياولدى .. لقد أذن الفجر .. وأنت نائم فى هذا الركن من المسجد .. قم صلى لله .. واتكل على الله .. انك مهموم . تهذى بكلمات غير مفهومة .. ولكن سيفرج الله كربك .. ذادت حيرة الشاب .. وقال فى وداعه ورقة .. لكن كيف يفرج الله كرب ابن الشيطان .. صدم الشيخ لوقع تلك الكلمات .. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . إنك تهذى ياولدى .. لا شك فى أنك محموم .. كيف يمكن أن تقول إنك ابن الشيطان .. لا شك فى أنك مجهد ..أو قد هاجمك كابوس لعين .. قم وإستعذ بالله .. إن الشيطان لا يدخل مساجد الله ..

قام الشاب وسار فى وسط المسجد .. لا شيء .. لا حريق .. ولا دمار ولا إصابات فى وجه ذلك الشيخ .. لا حذاء فى قدمه .. وقف لحظات ثم نظر إلى يديه فوجد ساعته .. وضع يده فى جيبه فوجد الخمس جنيهات .. فتعجب من ما حدث .. ثم ما لبث أن غادر المسجد وإنصرف .. رغم نداء الشيخ له .. ألن تصلى الفجر معنا .. !

قال الشيخ فى بساطة .. إن حزن هذا الشاب كفيل بأن يغطى سطح الأرض .. اللهم افرج عنه كوابيس نومه .. اللهم انزل عليه سكينتك .

د. عصام عبد العزيز

مدينة نصر

٢٠٠٤

(٩)

لحظات.. على المـــاء

لحظات..على الماء

ظل القارب ينساب على الماء تحت القمر .. وكان صوته مازال يرتفع بالصراخ المبحوح كغراب ينعق تحت القمر فيمزق أستار الليل والهواء .. كان كالمحموم من شدة الإنفعال .. اشتد عليه الهوس والهلع .. فسقط منه مجداف القارب الأيسر .. وظل القارب يتراقص على سطح الماء وتابعته العيون المحدقة به من أعلى الكبرى .. حتى اقترب منه لنش شرطة النجدة النهرية .. فقفز من قاربه وإرتمى فى أحضان الشرطى الذى علا وجهه بالدهشة .. فلم يسأله أولاً عن سبب صياحه ولا عن أسباب خوفه .. إذ كان جسده يرتعش .. والعرق يتساقط منه بغزارة تحت برد الشتاء .. كان يهذى بكلمات غير مفهومة ..

لقد شاهدته .. لقد شاهدته .. لقد سار على الماء أمام عينى حتى اختفى .. كان يمشى على سطح الماء أمامى .. شاهدته رأى العين .. إنه هو .. إنه هو .. ولا يمكن أن يكون أحد غيره ..

جلس على أرضية اللنش ناظراً إلى القمر تارة .. وإلى سطح الماء تارة أخرى ..كان يرتجف من شدة الخوف ..

إقترب منه قائد اللنش .. ووضع يده على كتفه .. فانتفض جسده ووقف ناظراً إلى سطح الماء .. لقد سار من هنا .. إنطلق يمشى على سطح الماء .. وضع رجله اليمنى أولاً على الماء .. ثم سار .. سار على الماء .. كما لو كان يسير على أرض من الرمال ..

قال الضابط : من هو الذى سار على الماء ؟ .. أهدأ أولاً ثم حدثنى عمن تتكلم ؟

قال بصوت مبحوح ولكنه واضح فى إيقاعه : لا أدرى .. ولكنه هو .. ذلك الذى ركب معى لكى يعبر إلى الضفة الأخرى .. لقد أشار لى .. ثم أشار إلى موضع على الشاطئ .. ثم تابع كلماته فى سرعة ووضوح ، فاتجهت إليه .. ونظرت له .. فلم يتكلم .. كان يرتدى جلبابا أبيض .. وكان حافى القدمين .. أعطيته يدى فأمسك بها أولاً ثم قفز إلى القارب فى خفة .. وجلس ثم أشار إلى الشاطئ الأخر .. فهمت ما أراده .. وأخذت أجدف .. بينما كان ينظر لى فى صمت ويبتسم إبتسامة رقيقة .. شعرت بالأمان معه .. وضع يده على يدى .. ثم أعطانى .. نظر إلى يديه فلم يجد شيئاً .. فتابع كلماته .. أعطانى قطعة من العملة .. عمله ذهبية عليها صورة ملك .. أخذتها .. وتأملتها جيداً ففرحت بها .. فلم أسأله عن أجرتى .. ولكنى وجدته يقف .. ووضع رجله على الماء .. ثم سار .. سار على سطح الماء .. حاولت أن أمسك به .. أن أنادى عليه .. فلم أقو على ذلك .. سار إلى الأمام ثم إختفى مع ضباب الفجر..

استمع الضابط والجنود إليه فى صمت ..

قال الضابط فى حدة ودهشة أيضاً : أنت محشش يا واد ..

صدمته كلمات الضابط .. واستعاد وعيه .. فإن الذى يقف أمامه الآن ضابط النجدة النهرية .. وبعض الجنود .. نظر إلى الماء .. فوجد أن قاربه مازال ينساب على الماء تحت القمر .. وحيداً .. نظر إلى الضابط وإلى الجنود الذين كانوا ومازالوا يحدقون به.

فسأله الضابط : أين تصريح القارب وأين بطاقتك ؟ ..

صمت .. ولم يتكلم أيضاً .. فأشار إلى القارب ..

جذب أحد الجنود القارب وهم أن يقفز إلى داخله .. فمنعه الضابط بيده ..

قال له الضابط : أنزل إلى قاربك لكى تحضر التصريح والبطاقة ..

وقف فى ثبات حيث فارقته الرعشة ورحل عنه الخوف .. وعاد صوته المبحوح إلى طبيعته ..

ولكنه قال فى ألم شديد : لا أستطيع أن أعود إلى قاربى مرة أخرى .. أنا خايف !..

نظر إليه الضابط .. ودفعه برفق : لا تخف .. أنا واقف بجوارك ..

تحرك نحو حافة اللنش ثم نظر إلى قاربه المنساب على الماء تحت القمر .. ثم نظر إلى الضابط كى يستمد منه الشجاعة .. نزل إلى قاربه .. ووقف صامتا .. ثم إتجه إلى صندوق .. فتحه وأحضر كيس نايلون به الأوراق .. وناوله إلى الضابط .. ونظر إلى الماء ..

فتح الضابط الكيس .. فوجد التصريح ووجد البطاقة ..

قال شرطى شاب : أفتح محضر يا أفندم ؟

نظر إليه الضابط .. وتأمل كلمات الشرطى .. محضر ! فلماذا ؟ إزعاج السلطات .. أم حالة تعاطى مخدرات!..

أشار إلى جندى آخر .. فقفز إلى القارب .. وظل يبحث عن أى شىء محظور .. فلم يجد شيئاً .. أعاد الضابط عليه السؤال : أنت مسطول ولا مجنون ولا أيه حكايتك؟

أجابه فى هدوء شديد : لم أدخن فى حياتى سيجارة واحدة ..

فعاود السؤال : أنت بتبرشم .. ولا بتشم ..

أجابه فى هدوء : لم أتعاط فى حياتى أى مخدر قط .

كان يتكلم فى صدق شديد .. وقد لاحظ الضابط أن دموعه كانت تسيل على خديه .. فتعاطف معه ..

قال الضابط فى صوت ودود : لقد تهيأ لك ذلك .. أو ربما قد تخيلت ذلك نتيجة الإرهاق ..

قال فى ثقة : لا .. ما أقوله لسيادتك حقيقة كحقيقة وجودى .. لقد ركب معى .. وأعطانى عملة .. ثم ما لبث أن سار على الماء حتى إختفى مع ضباب الفجر .

قال الضابط : إذا كان أعطاك شيئاً .. فأين تلك العملة ؟

قال : لا أدرى .. لقد كانت بين يدى !..

قال الضابط فى رقة : الأفضل لك أن تعود إلى منزلك لكى تستريح اليوم .. يكفى اليوم عمله .

قال : لا مأوى لى غير قاربى .. فهو مسكنى .. وعملى ..

مست كلماته تلك الضابط .. فكتب بعض الملاحظات .. ومد يده إلى الرجل وأعطاه الأوراق .. ثم أشار إلى سائق اللنش .. فإنطلق فى طريقه وإلى الأمام.

بقى وحيداً فى قاربه .. صامتاً .. نظر إلى القمر .. فوجده يشع نوراً وإشراقاً فى السماء لكى ينير له الطريق .. نظر إلى سطح الماء فوجد بعض الدوائر والدومات التى أحدثها اللنش الذى فارقه .. والتى جعلت قاربه يهتز ويتراقص برفق على سطح الماء .. وجد كل شيئ حوله ساكناً .. غير أنه لمح بين قدميه قطعة معدنية ذهبية عليها صورة ملك .. تبرق تحت سطح القمر

.. فأمسكها بقوة .. ونظر إلى الماء .. وفى نفس المكان الذى سار فيه على الماء الرجل ذو الجلباب الأبيض والحافى القدمين ..

وفى اليوم الثالث .. وفى خان الخليلى .. تم القبض على رجل ، بواسطة شرطة السياحة ، وهو يبيع عملة ذهبية نادرة .. عليها صورة القيصر .. ويعود تاريخها إلى العصر الرومانى .

وأثناء التحقيق الذى أجراه وكيل النيابة .. إعترف الرجل بأنه اشترى تلك العملة من بائع سمك يعمل على كورنيش النيل وذلك مقابل بضعة جنيهات .. ثم كتب الرجل أمام النيابة تنازلاً عن هذه العملة إلى مصلحة الآثار المصرية .. ثم أخلى سبيله بضمان وظيفته .. ولم يستطع أحد الإهتداء إلى مكان ذلك الرجل الصياد .. بائع السمك .

وفى قاربه .. بقى وحيداً .. لا عزاء له .. سوى الإنتظار .. إنه ينتظر .. وسيظل ينتظره .. غير أن تيار من السعادة الداخلية كان ينساب إلى أقصى أعماله .. فيشعره بالدفء رغم الشتاء القارس والبرودة والوحدة والصمت .

١٩٩٩/٢/١٠

مدينة نصر

(١٠)

لحظات...تحت المطر

لحظات..تحت المطر

جلس فى مكانه صامتاً .. لا ينظر يميناً أو شمالاً .. غير عابئ بمن يسير أمامه أو من خلفه أو من حوله .. بل ظل محدقا إلى المجهول الذى لا يعرفه أحد سواه .. غير مباليا بالسماء والغيوم والشمس التى تتوارى خلف السحب الداكنة والحبلى بمياه المطر .. بل .. وما بعد الشمس أيضاً .

السيجارة التى فى يده .. احترقت وظل دخان أسود يتصاعد منها .. فلم يلق بها .. بل ظلت فى يده .. محتفظاً بها بين أصابعة كأخر أثر كان يوما يمتلكه .. حذاؤه الأسود قد لطخ بالطين الأسود بعد أن ظل يسير به عبر الطرقات الموحلة حتى استقر به المقام فى حديقة من الحدائق العامة .. الكرة تندفع بجوار قدمه .. فلا يبالى بها .. يقترب صبى ويأخذ الكرة وهو يلهث .. فلا يبالى به وبلهاثه أيضاً ..

أزواج من العشاق يسيرون أمامه فى تباطؤ شديد .. فلا يعيرها التفاتا أو تأملاً .. بل يواصل التحديق فى المجهول الذى لا يعرفه أحد سواه .

صوت الرعد .. سقوط المطر .. نور البرق .. صوت الريح .. اهتزاز الشجر .. صوت البشر .. كل ذلك لا يعنى له شيئاً .. وكأن كل شيء عدم ..

قطة سوداء تسير فى برك المياه .. وتستقر تحت الدكة الحديدية التى يجلس عليها كى تحجب عن نفسها المطر المتساقط والمنهمر على الأرض والأشياء والعالم والبشر .

ومرة أخرى .. يسود الصمت .. والمطر الذى لا يسمع سقوطه ..

والرذاذ الذى لا يبهج النفس وصوت الريح الساكن والرعد الذى لا صوت له والبرق الذى لا نور له .. ثم النوم للامتناهى والممتد عبر زمن مجهول لا يعرفه أحد سواه .. بل ربما .. قد لا يعرفه حتى من مات .. فجأة تحت المطر.

أكان مقدرا عليه أن يموت فى هذا اليوم ؟ وفى هذه اللحظة ؟ وفى الحديقة ؟ وتحت المطر ! .جموع من البشر بدأت فى التحديق العابر .. وفى التحديق المستمر فى هذا الكائن البشرى الذى لا يتحرك والشبيه بالتمثال الحجرى .

اقترب منه شيخ ذو انحناء وإستند لحظات على عكازه القصير .. فاذداد قرباً من الأرض .. ونظر إلى ذلك الكائن نظرة عميقة .. متفحصاً إياه .. مدركاً فى نفس الوقت .. أن الموت لا يخرج عن هذه الصورة .. صورة الصمت والسبات الممتد والإنبهار المرتد على البشر .. ثم ..المجهول المبهم .. ثم العدم ..

إراد أن يمد يده لكى يلمسه .. غير أن خوفه من لمس الموت قد منعه من لمسه خشية .. «عدوى الموت المجهول المتحجر» .. بل ظل يواصل التحديق فيه دون أن يقدم على أى خطوة إيجابية لمعرفة كشف كنة هذا الكائن المتحجر والذى مات فجأة تحت المطر ..

لقد أدرك لا شعرياً بأن ذلك هو الموت وليس النوم .. لقد انبعث هذا الإدراك من الخوف .. الخوف الداخلى لمن يشعر ويدرك بأن الموت يقترب منه وأنه حتماً سيطارده سواء شاء ذلك أو لم يشأ .. وأن تلك الصورة أو هذا المشهد سيكون له وإن تغير الوضع والزاوية والوقت والمكان .. فالمسألة تتلخص وتتركز فى الزمن .. قليل من الوقت .. ثم الإنتظار .. ثم المباغته .. ثم العدم .

وعلى شاكلة هذا الشيخ .. اقترب عشرات من البشر لتأمل هذا المنظر : منظر الشيخ الذى يتأمل الموت أولاً .. ثم منظر الشيخ والموت الذى تمثل فى ذلك الكائن الذى يواصل التحديق فى المجهول .. ثانياً .

أصبح هذا المشهد محور أنظار الجميع .. حيث شكل البشر دائرة .. دائرة ملتفة التفافا كاملاً حول هذا المشهد المذدوج .. وقد غلف هذا المشهد بالصمت .. الصمت الذى يشبه صمت القبور .. فلو كان الصمت لحدا لبتلع هذا الرجل أو هذا الكائن الذى كان يوماً رجلا .. بل وابتلع الشيخ أيضاً وهذه الجموع من البشر .

وساد الصمت .. وانهمر المطر .. ونظر الجميع إلى السماء .. ثم تفرق البشر .. ورفع العجوز عصاه .. وسار صامتاً فى الطريق .. ناظرا خلفه تارة .. ثم واقفاً تارة أخرى .. حتى واصل سيره مقترباً من رجل شرطى حيث دار بينهما حوار قصير .

ظل ذلك الكائن يواصل التحديق فى المجهول وتحت المطر .. المجهول الذى لا يراه أحد سواه .. المجهول الذى التحم به وأصبح عالمه والذى سوف يبتلعه عما قليل وسيغوص به إلى أقصى أعماق الأرض . رغم المطر .. ورغم اقتراب خطوات الشرطى الثقيلة تجاهه .

١٩٩٩/٨/١٩

مدينة نصر

(١١)

لحظات الموت.. والبعث

لحظات الموت..والبعث

ظل يستمع إلى أجراس الكنيسة وهى تدق دقاتها المتواصلة الحزينة .. فأيقظ صدى إيقاعها الحزين ما بداخله من أفكار صامتة .. وبدأ يشعر بحزن عام يجتاحه .. وبمرارة فى حلقه .. وبألم روحى شديد يتسرب إلى داخله .. إلى أقصى أعماقه ويهز كيانه هزاً متواصلاً .. لقد داهمته ذكرى عملية ومأساة صلب المسيح .. ولحظاته الأخيرة على الصليب .. أغلق عينيه ألماً .. وأرهق السمع .. فإذا بصراخ المسيح يمزق صدى الليل الحزين .. «ايلى ايلى .. لماذا شبقتنى» .. ارتعشت كل حواسه .. وظل صدى تلك الكلمات القاسية يرن فى أذنيه .. وامتزج هذا الصدى كالدوامات الفضائية مع صدى أجراس الكنيسة الحزينة ..فتح عينيه .. فإذا بطعم الخل فى فمه .. وبألم ووخز فى جنبه .. فأدرك معنى الوحدة .. والآلم وقسوة مرارة تجربة الصلب .

سالت دموعه فى صمت على خديه .. وعلى فمه .. فشعر بملوحة شديدة على شفتيه فآمن بأن كل شيء حزين فى هذا العالم .. وأن الألم والحزن والمرارة .. نسيج هذا العالم .. والدموع جزء لا يتجزء من حياة الإنسان .. ثم هناك فى نهاية المطاف .. الموت .. الموت المقدر على الإنسان والمتربص له .. حتى ولو كان .. صمت لحظة .. فصمتت أفكاره .

أخرج منديلا من جيبه لكى يمسح عن نفسه الملوحة والعرق والحر الخانق رغم الليل والبرد .. غير أنه صدم حين لاحظ فجأة .. أن منديله .. منديل طويل ناصع البياض .. وأنه يشبه من ناحية النسيج .. الكفن .. الكفن الذى لف به جسد المسيح..

آلمته تلك الفكرة .. وذداد حزناً على حزن .. فقبله بحرقة وبحب شديد غير أنه لم يجسر على أن يمسح به الملوحة والعرق والحر الخانق الذى أحاط به من الخارج .. والذى غلف ذاته .. وأفكاره من الداخل .

أحس بالحصار الروحى الذى يحيط به من كل جانب .. فاستسلم للحزن فى صمت .

غير أن كل لحظة مرت به .. جسدت أمامه آلام السيد المسيح .. شريط من الذكريات الحية يتجسد له .. حتى المعبر الذى أمامه فى الحديقة .. أصبح هو الممر الذى سار فيه المسيح حاملاً صليبه الثقيل نحو الصلب ..

إن الماضى يبعث أمامه ويرتد فى تلك اللحظة من لحظات الزمان السرمدى .. أدرك أن الماضى قد التحم بالحاضر .. وأن الحاضر ليس إلا تجسيداً للماضى وأن الألم .. كان دائما وأبداً فى البدء .. والألم كان أيضاً .. فى النهاية .

تملل فى مقعده قلقاً .. تعباً .. وألقى برأسه وبجسده إلى الوراء ومد ذراعية ويديه مستنداً بهما على ظهر الدكة الخشبية .. فإذا بألم شديد يجتاحه .. ألم جسدى وليس ألما معنوياً .. فقد إستند على مسمارين بلا رأسين بارزتين من ظهر الدكة الخشبية .. وإذا به يرى الدماء تسيل من كلتا يديه .. حملق فى يديه .. فى الثقبين الداميين .. فى كفه اليمين وكفه الشمال .. فإبتسم فى دهشة .. إذ أدرك معنى التوحد المشبع بالدماء بينه وبين .. المسيح .. ثم استخدم عقله لصياغة فكره منطقية .. إن المسمار الذى ثقب يدى المسيح أثناء الصلب .. يعادل ذلك المسمار الذى ثقب كفيه .. وبلا شعور وضع منديله الأبيض على كفيه .. المثقوبتين .. فتلطخ المنديل بالدم .. وأصبح المنديل .. بل الكفن يحمل دماءً حية نازفة من ينبوع جسدى حى .. انهمر فى البكاء وفى صمت .

اجتاحه هاجس لا شعورى مفاجئ .. هل يمكن أن يكون المسيح قد حل فى جسده ؟ أو هل حلت عليه روح المسيح .. الروح القدس ! . حاول أن يربط بين كل تلك اللحظات الشعورية واللاشعورية والتى مرت به منذ أن صلب .. منذ أن جلس فى الحديقة أمام الكنسية ومنذ أن استمع فى ألم إلى أجراس الكنيسة .. فوجد أن كل شىء كان كنسى الطابع .. لاهوتى التفسير .. كل شيئ قد غلف بالرموز المسيحية .. هيليلويا .. هيليلويا .. هيليلويا .. سانتى اسبيريتوس .. ثم اذدادت دهشته حين وجد أيضاً أن كل شىء قد تبدل وتغير بداخله تغيراً غريباً .. فقد شعر بالنشوة وبالصفاء الروحى .. إذ إختفى الألم الروحى الذى كان يعصف به من الداخل .. وتوقف نزيف الدم .. وذدادت قدرته على التركيز والتعمق فى كل ما مر به أثناء تلك التجربة الأليمة وفى تلك اللحظات الروحية .. وتذكر أيضا وبوعى شديد .. أن هذه الليلة هى ليلة عيد ميلاده الثمانين ..

دقت أجراس الكنيسة مرة أخرى .. فرفع رأسه وارتسم النور على وجهه .. وتهلل فرحا .. فقد تذكر لحظات الميلاد .. لحظات البعث .. بعث السيد المسيح فى اليوم الثالث .. وأبصر ثلاث من القساوسة يسيرون أمامه والبشر يملأ وجوههم .. فأدرك أن تلك هى لحظات القيامة .. أجل القيامة .. فالموت .. الموت القاسى .. سواء كان موتاً طبيعياً .. أو موت عن طريق .. صمت قليل ثم تابع فكرة .. عن طريق الصلب .. لابد أن تتبعه القيامة .

إطمأن لتلك الفكرة المترسبة فى أقصى أعماقه والتى أراحته لاشعورياً .. كما أنعشته نسمات الهواء البارد .. إهتزاز الأشجار والزهور .. فأدرك أن كل شىء فرح فى هذا العالم .. وأن البسمة والأمل .. الأمل جزء لا يتجزأ من حياة الإنسان.

أغمض عينيه لحظات .. فرأى جمال الوجود الداخلى .. والصمت .. وموسيقى الصمت الهادىء .. فتح عينيه .. فإذا بوهج أحمر يغمر المكان ..

فقد أوشك شروق الشمس على الظهور .. غير أنه انتفض فجأة .. عندما صاح الديك ثلاث مرات متتابعة .. وسمع بوضوح بكاء بطرس الحزين .. وإذا بزوجته التى ظلت تبحث عنه طوال الليل أمامه .. تمسك به فى عطف شديد .. وتضع عليه معطفاً كى تقيه برودة وصقيع برد الشتاء .. وتقوده من يده فى صمت .. فسار معها صامتاً أيضاً .. وتمتم فى داخله .. (مبارك الآتى باسم الرب ..) .

٢٠٠٠/٤/٤

مدينة نصر

(١٢)

لحظات...مع الهذيان

لحظات... مع الهذيان

أحس بأن الشمس على وشك الإنفجار .. وكان مازال يعانى من هذيان أحلامه .. مد خطاه وعاد إلى بيته .. شاعراً بالحر والضيق والملل .. تمهل فى إخراج مفتاح شقته وظل يبحث عنه فى جيبه الأيسر حتى وجده فى جيبه الأيمن .. فتح الباب .. ثم دفعه بقوة لكى ينتزع منه المفتاح .. ثم خطى خطوتان إلى الأمام .. وأغلق الباب بدفعه بيده إلى الخلف محدثا صوتاً مدوياً له صدى عميق .. فإذا بضوء قوى أبيض غريب .. شديد البياض .. ينير كل شىء حتى تعذر له أن يرى شيئاً .. فإنبهر بما يحدث .. ولكنه ظل يتأمل فى هذا الضوء .. وسار بطريقة عادية إلى وسط الحجرة الكبيرة .. وظل واقفاً ينتظر .. فإذا بطفلة صغيرة تظهر له .. وتمد له يديها .. حاملة عروسة صغيرة .. حاول أن يلمسها .. غير أن صوت صياح متواصل .. جعل البنت تجفل وتجرى ثم تختفى من أمامه .ظهرت له امرأة جميلة .. تجلس أمام المرآة لكى تضع زينتها وتغمر وجهها بمكياج سميك .. ثم استمع إلى صوت رجل يسعل بصوت مبحوح .. راقداً على سريره وقد إشتدت عليه حالة الربو وظهر عليه الإجهاد .. حاول أن يتقدم إلى الأمام .. ولكنه وجد أن رجليه لا ستعفاه على السير .. فقد تجمدتا .. فظل واقفاً فى مكانه .. شاهداً على ما يحدث تحت الضوء الساطع .إستدارت تلك المرأة .. ثم أعطت الرجل المريض كوب ماء .. فشربها دفعة واحدة .. وواصل نومه .. ظلت المرأة تحملق فى ذلك الرجل المريض .. ثم إستدارت ووقفت أمام المرآة لكى تكمل زينتها . ثم إذا هى تخرج إلى الصالة .. لكى تستقبل رجلاً أنيقاً .. ألقى بعصاه وبطربوشه على الكنبة وأخذها إلى صدره بقوة .. وقبلها فى شبق ثم

حملها وغادر الصالة .. إستدار إلى الخلف .. فوجد الخادمة وهى تقوم بغسل الغسيل وقد تعرت ساقيها .. اقترب منها وأمسك بقدمها .. فإبتسمت .. ظل يتحسس جسدها حتى وقفت .. وخلعت ملابسها وألقت بها على الأرض .. ظل فى مكانه عاجزاً عن الحركة .. وظلت تلك الخادمة تضحك ضحكات متواصلة بدون صوت.

ظلت تلك الصورة تتراءى .. لقد أدهشه أنه يشاهد نفسه بنفسه.

ثم وجد نفسه وهو صغير .. فى فصل دراسى .. وقد أخذ الأستاذ يهاجمه فى عنف ثم يبدأ فى ضربه على يديه ببطء وقسوة . وذلك لكى يتذوق طعم الألم .. بينما يضحك منه زملاؤه .. ظهرت عليه تعابير الألم .. وسالت دموعه فى صمت .

التفت إلى يمينه فرأى الرجل يحتضر والخادم يبكى بحرقة .. ثم يغطى وجهه بالملاءة .. التفت إلى شماله فوجد أن تلك المرأة فى حالة شبق مع تلك الرجل الفحل .. حاول أن يصرخ فلم يستطع .. نظر أمامه فإذا بصورة عرس .. أمه مع والده .. فى ثياب عرس .. فكرة العالم . إستدار إلى الحائط .. بعد أن قاوم تكتيف رجليه وشلل جسده الغير مبرر وبعد أن حرره الألم .. نظر عبر النافذة .. فإذا بصحراء مترامية الأطراف .. وإذا به يرتدى ملابس الجيش الميدانى .. ويسير بين الجثث المنتشرة فى كل مكان .. الطائرات تلقى قنابلها .. حاول أحد المحروقين بالنابالم أن يمسك به لكى يتشبس بالحياة .. غير أنه قاوم فى عنف أن يمسك به أحد .. لقد حوله الرعب من منظر الرجل المحروق إلى رجل مذعور .. لقد أطلق عليه النار لكى يحرر نفسه .. من الخوف .. من الرعب .. أحس أنه محاصر بواسطة الشمس الحارقة .. وضوء الغرفة الساطع .. أدار وجهه فى ألم شديد .. جلس على الأرض وإستند إلى الحائط .. وظل يبكى بكاءً شديداً .. غير أنه أحس بظل امرأة .. فرأى فيها أجمل امرأة على لأرض .. اتجهت نحوه .. ومدت

له يديها ولكنه رفض أن يمد يده .. بل قاوم بجسده أى محاولة لكى يرى تلك المرأة .. أو لكى يقف .. لقد ظل يستر وجهه بكلتا يديه .. وافضاً أن تساعده .. فإذا بالحزن يرتسم على وجهه تلك المرأة الجميلة .. فإذا بها تستدير إلى الخلف .. وتسير نحو كرسى صغير .. وتصعد عليه لكى تشنق نفسها .. فإذا به يصرخ صراخاً متواصلاً .. ولأول مرة يسمع صراخه بوضوح .. ظل يتقلب على الأرض حتى إصطدم جسده بتلك المرأة المشنوقة والتى سقطت أيضاً على الأرض .. بعد لحظات من شنقها أصيب بحالة رعب .. فظل يصرخ صراخاً مبحوحاً ويبكى بحرقة وألم .

غير أنه أحس بأن هناك دقاقت متواصلة على الباب .. طرقاً متصلاً .. يصم أذنيه .. فصمت .. ورفع رأسه .. فإذا بالضوء الغامر يختفى .. ويختفى كل شىء من أمامه .. وإذا به جالساً على الأرض فى وسط الغرفة الكبيرة .. ومستنداً إلى الحائط .. وقف فى جهد شديد .. استمع إلى الطرق المتواصل .. حاول أن يتسعيد توازنه لكى يقف فى إتزان .. وسار إلى الباب وفتحه .. فلم يجد أحداً .. أغلق الباب وسار نحو غرفته وألقى بجسده على السرير مجهداً مفتوح العينين .. صامتاً .. غير أنه استمع وبوضوح إلى صوت الديك وهو يصيح ثلاث مرات متتالية .. فأغلق عينيه فابتلعه الظلام والصمت ..

١٠/١٠/٢٠٠٠

مدينة نصر

(١٣)

لحظات..مع «المجرب»

لحظات .. مع « المجرب »

توضأ وصلى وإنتظر .. وعندما صاح الديك ثلاث مرات .. ظل يواصل السير على الرمال حتى توقف . فغاصت قدماه فى الرمال .. فوقف صامتاً وحملق بعيداً وأرهف السمع وإنتظر خاشعاً . غير أن شيئاً لم يحدث .. فواصل السير مغيراً إتجاهه .. ثم تيمم وصلى وغير موضعه وإنتظر صامتاً راكعاً .. ولكن لا صوت .. لا حركة .. لا شيئ سوى السماء والنجوم والرمال والصمت .. واصل السير ثم توقف فى بطء شديد وصلى واقفاً ناظراً إلى السماء وطال الإنتظار .. ثم واصل السير دون أن يحدد لنفسه طريقاً معيناً فقد ترك ذاته تقوده غير أنه شعر بالتعب الشديد .. فإستقر به المقام تحت شجرة يابسة لا حياة فيها .. فأدرك أنها شجرة تين .. فأدركه الحزن الشديد .. وسالت على خديه الدموع وشعر بألم شديد يجتاحه .. من رأسه إلى أخمص قدميه .. غير أنه تماسك وتحمل الألم .. تذكر «سفر أيوب» فصبر .. غير أن قرص الشمس بدأ فى الصعود إلى الشفق شيئاً فشيئاً .. فتمسك بالأمل .. فربما غمر ضياء الشمس العالم بالضياء .. والذى يأتى إلى قلب الصحراء ليحدث البشر .. يستطيع أن يأتى ليلاً كما يستطيع أن يأتى نهاراً أيضاً ، وعلى ضوء ذلك .. ربما كلل مسعاه بالنجاح وحقق هدفه الذى أضناه وأرهقه .

شعر بالجوع .. فإبتسم .. لأن إرادته ملك ذاته .. الطعام لم يعد مشكلة بالنسبة له .. فإنه يستطيع أن يمسك عن الطعام متى أراد ذلك ، نظر إلى السماء .. فشعر بالحرارة تسرى فى جسده .. ثم أحس بأن هناك مرارة شديدة فى فمه .. وطنين حاد فى رأسه .. غير أنه انتفض عندما رأى حية تسعى

إليـه .. رأها تخـرج رأسـهـامن تحت الرمـال .. وتتلوى فـتـرسم خطوطاً وتعرجـات على الرمـال .. فـأدرك أنهـا بالغـة الطول والضخـامة .. لم يشـعر بالخوف بل شعر بالرهبة وتحفز واستعد للمواجهة ..

إن إجـابة الأسئلة كلهـا حـاضرة فى عقلة حتـى وقبل أن تلقى عليـه الأسئلة .. إنهـا الحيـة بل الشيطان .. بل المجرب .. المغوى .. لا يهم .. لأن السؤال بل والإجابة أيضاً .. معروفة منذ فجر التاريخ .. ومسجلة فى الكتب وقد سبق له أن حفظها جيداً وبلغاتها الأصلية العبرية .. السريانية .. والقبطية .. بل بالعـربيـة أيضـاً .. بل أحس بأنه يريد فكراً وحـواراً ورؤية جـديدة .. إنه ابن هذا العصر .. وقد مضت قرون على الماضى .. غير أن الحيـة لم تنطق بعد .. بل رفـعت رأسها وإنتظرت هى الأخرى .. كاد أن ينطق .. كاد أن يبدأ الحوار المقدس مع هذه الحية ليسجل بنفسه «الكتاب الجديد» .. لولا أنه تمالك نفسـه .. إذ إنه يعلم تمام العلم .. أن الشيطان له لغات عـديدة .. وهو عـالم اللغات القديمة والحديثة .. اللغات الحية والميتة بل والمندثرة أيضاً .. غير أن الصمت قد طال وطالت لحظات المواجهـة .. لا شىء .. لا حركة .. لا صوت .. لا كلمة .. أيمكن أن يكون الصمت لغة .. أيمكن أن تكون قراءة الأفكار هى اللغة الجـديدة .. أن تهتك أفكار الآخرين عبر لغة الصمت .. وينتزع منهم .. التفكير .. والدوافع والشهوات الجامحـة المكبوتة .. كل ذلك عبر لغة الصمت .. حملق فيـها ثم سألهـا فى صمت تام ، ألنت الحيـة الخالدة ذات الخطيئـة الأولى فى التاريخ .. صانعة بل خالقة بذلك حركة التمرد والعصيان حتى أمام الخـالق .. مـجردة بذلك حرباً أزلية بين الإنسان والذات العليا ! أم أنت نفسك الشيطان الذى تحدى الخـالق ذاتـه ورفض السجود للإنسان .. بل أنت الذى دفعتـه لكى يرسل لهيب سيف متقلب لحراسة شجرة الحياة والموت .. ولكن مـهما كنت ومهما كـانت الأسئلة التى سوف تلقيها فى وجهى .. فأنا لا أخـافك .. بل أقف أمـامك وجـهاً لوجه لكى أسمع منك مـا تريد أن تلقيـه فى

وجهى . ومهما كانت أفكارك قاسية فإنى لا أخشى شيئاً .. بل أقبل المواجهة .. وأتحدى قسوة الغواية .. والآن أنطق .. ساد الصمت وطالت المواجهة غير أن ذلك الصمت قد قطعه حركة الحية .. فإذا بها تغوص مرة أخرى فى الرمال .. وجسمها الطويل يتلوي بسرعة كبيرة تحت الرمال حتى إختفت وتركته وحيداً فى الصحراء التى سعى إليها وحيداً .

شعر بالوحدة .. وإهتز جسده .. فقد صدم صدمه الصمت المطلق أولاً .. ثم الهروب ثانياً . فإستند إلى جزع الشجرة اليابسة شاعراً بالحر والوحدة واليأس .. شعر باليأس حتى الموت .

سأل نفسه : هل حقاً انتصرت على هذه المغوى ! هل خشى المواجهة معى ! .. وهل كانت تلك الحية هى المغوى ! أين اليقين بل أين الحقيقة ! .. ثم ما لبث أن صمت . صمت يأساً وألما .

كان يدرك تماماً .. بأن هناك من سيأتى .. ولكن عليه الإنتظار والتحمل والصبر .. الصبر المقدس ذو القدرة الإنسانية الرائعة .

ولكن ها هى الصحراء الحارقة الممتدة والتى يضيع فيها البصر .. وها هو السراب الممتد .. ربما يأتى أحد ! وربما .. لا يأتى أحد.

إن تلك هى الصحراء الجرداء .. وهى حبلى بالأسرار .. تماماً مثل رحم الليل الذى يبتلع كل شىء .. فعلى مثل تلك البقعة الرملية من الصحراء الحارقة .. لا شك أن الله نفسه قد تجلى لموسى فى العليقة على شكل لهيب نار حارقة .. ولا شك عندى أيضاً أن المجرب قد ظهر للمسيح فى مكان قريب الشبه من تلك الرقعة الصحراوية .. وجبريل نفسه ألم يهبط على محمد وهو فى غار حراء الكامن فى أعماق الصحراء .. وها أنا ذا الآن وحيداً فى تلك الصحراء .. أنتظر .. أنتظر اللقاء .. أنتظر اليقين والحقيقة .

شعر بالحزن الحقيقى .. إذ إن الإمتحان الذى عقده لنفسه والتجربة

القهرية التى قرر أن يخوضها .. بدأت تثقل عليه ..

شعر بالعطش .. فحاول أن يقوم .. ولكنه نظر إلى الشمس .. فوجد الرمال تلمع مثل حبات الذهب تحت الشمس .. حاول أن يواصل السير غير أنه أبصر صقراً .. ربما كان نسر يحوم حوله ثم يهبط على فرع من فروع الشجرة اليابسة .. فاستيقظت كل مشاعره .. وتحفذ عقله .. ونفض عن نفسه كل التعب والألم واليأس أيضاً .. وظل يحدق فى ذلك النسر .. ربما كان صقر .. وكانت عينا الصقر تلمعان وتبرقان بشدة .. نظر إليه بل ومد ذراعية إلى أعلا وصاح بصوت عال : والآن إن كنت أنت فإنطلق .. إن كنت أنت الذى أنتظره فأفصح .. ها أنا ذا ..وحيداً تحت الشمس الحارقة وعلى أرض الصحراء المقدسة الملتهبة .. ها أنا ذا أنتظر .. نحن وحدنا الآن لا يسمعنا أحد .. بل وأقسم لك بجلال الكون وصمته .. بملك الكون وعظمته بأنى لا أفشى سر اللقاء .. أو أنقل لأحد جلال الحوار المقدس .. أو أذيع يوماً كلمة عن اليقين والحقيقة .. ولكن كل ما أبغيه هو أن أعرف فقط الحقيقة .. الحقيقة التى أنتظرك من أجلها ..

كان يتكلم كالمحموم .. وكان جسده يرتعش .. وكان قلبه ينبض بسرعة شديدة حتى كاد أن ينفجر داخل صدره .. غير أن تلك الحركات والإشارات وذلك الصوت الذى كان يمزق صمت الصحراء جعل النسر .. وربما كان صقر .. يرتفع فى الهواء بعد أن ضرب الهواء الراكد بجناحية ضربات متصلة وحلق بعيداً فى السماء وطار تحت الشمس الحارقة والتى ألقت بأشعتها القوية فى عينيه حتى غشى بصره للحظات .

أحس بمرارة شديدة .. وشعر بالحزن حتى الموت .. بل أحس .. أنه .. ربما كانت السماء نفسها تسخر منه .. فتلفت حوله .. فوجد الخواء والحر ومرارة الإنتظار اللانهائى .. ثم هناك الملل .. الملل الذى بدأ يتسرب إلى داخله .. فشعر برغبة شديدة فى تدخين سيجارة .. غير أنه رأى .. أن ذلك

غير جائز في هذه التجربة المريرة والقاسية .. خاصة على تلك الرقعة المقدسة المباركة .

شعر دون أن يدرى أنه .. وبما يكون قد ورط نفسه في هذه التجربة .. أو أن الأمر كان وليد لحظة إنفعال .. أو مجرد خاطر قد طرأ على خاطره .. غير أنه سرعان ما نفض عن نفسه هذه الأفكار بل هذه الوساوس .. بل أكد لذاته .. وعيه التام بفكرته وتجربته بل وبنتائج تلك التجربة.

شعر بالإنهاك الشديد .. فجلس وأغمض عينيه .. فسمع صوت الريح .. وصوت الصمت بل وصوت الرمل أيضاً عندما يتحرك .. بل أحس به على وجهه .. شعر ببعض الهدوء والراحة .. غير أن هذه الراحة قد قادته إلى عالم مغاير عن عالمه الذى عانى منه في هذه الصحراء .. فقد شعر بطعم الويسكى على لسانه .. وإلى رؤية كأس من الويسكى وكرات من الثلج تطفوا على سطحه .. وضباب ورطوبة الكأس البارد بين يديه .. ثم ضحكات نساء وهمساتهن في أذنيه .. ثم برز له وجهها وهى تقترب منه بجسدها الأبيض الناعم الرقيق .. كانت تسير مثل راقصة البالية .. بل شعر بجسدها وهى تحتك به .. وتجلس على ركبته .. ثم ها هى وهى تقرب فمها من فمه .. فيقبلها في شبق وقوة .. ثم استمع إلى صوت مياه تتساقط فأدرك أنه تحت مياه الدش البارد وهى تنهال على جسده .. فشعر بمتعة شديدة .. وعانقها أيضاً تحت الدش .. فتح عينيه .. فوجد الضوء الغامر .. ولهيب الصحراء القيظ اللافح وشجرة يابسه .. ورمال ملتهبة .. وسراب ممتد أمامه .. فصمت .. وتمنى الخلاص لاشعورياً من ذلك الموقف الصعب ومن هذه التجربة القاسية والأهم من ذلك هذا الإنتظار الرهيب .. وصمت مرة أخرى .. إذ شعر بقسوة ومرارة هذا الإنتظار .. غير أنه رفض الضعف واحتقر الإنسحاب والهروب وسرعان ما أبصر قافلة تسير من بعيد .. حاول الوقوف والجرى لكى يلحق بها غير أنه لم يقو على فعل ذلك .. وخيل إليه أن الذى

يقود تلك القافلة هو لورانس نفسه .. لورانس الصحراء والذى أخذ يبتسم له من بعيد .. فقد اقترنت الصحراء أيضاً كلما ذكر اسم لورانس .. أكان هو الآخر يطمع فى مثل هذه التجربة .. شعر بالهزال والضعف والجوع والعطش وأحس للمرة الثانية وبصدق شديد برغبته فى العودة بل وفى الهروب أيضاً من هذه التجربة لكن إرادته وفكره أيضاً .. فضلاً عن رغبته الغير محدودة لمعرفة الحقيقة .. كل ذلك كان يجعله فى حالة وعى ويقظة .. إن تلك القافلة التى تسير أمامه هى نوع من الإغراء أيضاً .. إذ إنه فى حالة إنتظار .. وأن هناك من سيأتى إليه .. وعلى ضوء ذلك .. ما الذى يريده من هذه القافلة .. إن رؤية لورانس .. ليست سوى خيال عابر أو مجرد وهم نتيجة الوحدة والتعب وتلك الشمس الحارقة .. إبتسم فى داخله وأدرك أن عقله الباطن كثيرا ما يملى عليه أفكاره ، إنها .. فقط لعبة العقل وشطحات الفكر .. وصراع الجسد .. بل تساءل فى سخرية .. محدثا ذاته .. ألا يمكن أن يكون هو نفسه المغوى لذاته ! إن الذكريات التى تنبعث من داخله .. كثيراً ما تثير فى داخله الإغراء .. ثم بارك فى داخله إرادته ووعيه رغم الحر والوحدة والصوم .

ثم داهمه سؤال كان يهرب منه دائماً شعوريا وأيضاً لا شعرياً .. ما الذى يريده من ذلك «المجرب» .. أن يمتحن إيمانه ؟ أن يمتحن بواسطة قوى أخرى لكى يتناقش فى أخطر القضايا السماوية والأرضية ؟ أن يشعر بمتعة المواجهة ؟ أن يستعرض معلوماته وفكره وقدرته على دحض الحجج التى لا يقبلها عقله ؟ أم أراد أن يعلم ما لا يحق لبشر أن يعلمه !..

شعر بالملل وأدرك أن الليلى مقبل عليه .. فها هى الشمس على وشك الرحيل .. وتذكر أن اليوم يوم الجمعة الحزين .. وأنه كان يوم الصلب .. ويوم الموت أيضاً .. شعر بالحزن العارم وأحس بالخوف أيضاً .. غير أن ضوءاً شديداً صدم عينيه .. رغم إقتراب الليل حثيثاً منه ورغم عدم معرفته بمصدر هذا الضوء .. نهض وسار على هدى ذلك النور .. سار بضعة خطوات ..

فرأى النهر .. تغمره آخر أشعة الشمس الحمراء .. ثم أبصر المياه وهى تتدفق بقوة عبر النهر .. فجرى وإرتمى على حافة النهر لكى يشرب .. وظل ثوان هكذا .. حتى إكتشف الرمال تملأ فمه .. فمسحه فى صمت وحزن .. جلس على الرمال صامتا وتساقطت الدموع من عينيه فى ألم وصمت حزين .. ولكنه تماسك خوفاً من أن يتسرب اليأس داخله .. نظر إلى السماء وصلى جالساً .. وذكر فى صلواته كل ما يريد أن يعبر عنه وكل ما كان يريد قوله لو حظى بلقاء المجرب .. تحدث مع الله كثيراً .. وأفضى إليه وفى حرية شديدة .. حرية لا تتاح كثيراً إستخدمها بصورة علنية .. بكل ما كان فى داخله ومنذ أن اختبر العالم ومنذ أن عرف وأدرك معنى المعاناة .. معاناة الإنسان فى هذا العالم .. أحس براحة غريبة تسرى فى جسده .. أحس بأن طاقة هائلة قد خرجت من أعماقه وتركته أخف وزناً وأكثر هدوءاً .. بل سرعان ما أبصر ملاكاً .. ملاك أبيض يظهر أمامه .. ويتجلى له فى ملابسه البيضاء التى ترفرف فى الهواء .. أغمض عينيه .. لأنه .. وربما قد أدرك أن ذلك شكل آخر من أشكال السراب .. تماماً مثل مياه النهر .. أبتسم صامتاً فى مرارة وأدرك أن نفسه حزينة حتى الموت ..

فتح عينيه فوجد الملاك أمامه .. بل ويبتسم له فى وداعه وفى بساطة شديدة .. فبهره الموقف واللقاء .. وتساءل : أيمكن أن يأتى المغوى فى شكل ملاك ! أيمكن أن يتجسد إبليس فى شكل ملاك بغرض الغوية !..

وبينما تدور تلك الأسئلة فى عقله .. إقترب الملاك منه ووضع على رأسه .. فإذا بهواء بارد منعش يتسرب إلى جسده .. وإذا به يرتوى فلا يشعر بالعطش الذى كاد أن يقتله .. بل إختفى الجوع والحر واليأس .. حاول أن يتكلم فوضع الملاك أصبعه على شفتيه فصمت .ثم سار الملاك أمامه .. فتبعه صامتاً .. وسار خلفه إلى طريق لا يعلمه أحد .

وسرعان ما ابتلعهما الليل .. ولم يبق سوى الرمال والنجوم والسماء

والصمت .. حين ذاك صاح الديك ثلاث مرات .

في اليوم الثالث .. عثرت دورية الشرطة على أستاذ جامعي وعالم اللغات القديمة ملقى في الصحراء بين الحياة والموت .. وتم نقله إلى المستشفى لعمل اللازم له . غير أن حالة من حالات الهذيان كانت تجتاحه .. فذكر المجرب .. والحية .. والملاك .. وطريق الفردوس .. ثم استشهد بجمل من اللغة اللاتينية والسريانية والألمانية والعبرية والسنسكريتية .. ثم صمت .. ودخل في عالم الصمت المبهم والمغلق والذي لا يعرفه أحد سوى الله .

وعندما حضرت زوجته .. ذكرت في بساطة وفي حزن شديد .. أنه في اليوم السابق لإختفائه قد قرر الخروج للصحراء لعقد مقابلة هامة . ثم صمتت الزوجة .

٢٠٠٠/٧/٧

مدينة نصر

(١٤)

لحظات.. مع أحلام رجل غريب

لحظات .. مع أحلام رجل غريب

لم أعرفه .. ولا أذكر أنى قابلته يوماً قط .. جلس بجوارى على المقعد الخشبى فى الحديقة العامة أمام البحيرة صامتاً .. ثم بدأ يسرد لى كلماته .

« حلمت أنى أسير فى طريق طويل وممتد .. وفى وسط حديقة طويلة .. لا نهاية لها .. وكانت هناك امرأة جميلة .. وكنت أرى الريح أمامى ..»!

إستوقفتنى تلك العبارة .. بل وصدمتنى أيضاً .. غير أنه تابع كلماته فى هدوء شديد .. «ثم رأيت نفسى فى مدرسة .. وتكلمت مع الطلبة بجوار فصل مفتوح وعلى الحائط كتبت مسائل جبر .. وكانت هناك ورقة أسئلة مع الطلبة .. وخارج الفصل طلاب يجلسون ويشيرون على من أكلمه وهو شاب سمين .. وكان الطلبة يتغامزرن علينا وانصرفت معه .

وقد قابلت أحد الأصدقاء حيث قال لى ماذا تفعل هنا ؟ .. فقلت إنى أزور السيرك ولكنه أخبرنى صراحة بأنى لاعب ترابيز محترف .. وكان معه صديقاً آخر،

ثم وجدت نفسى مع أحد الأصدقاء أمام منزل الدكتور .. الذى لا أتذكر من هو ؟ .. ثم تشاجرت مع أحد .. وكسر زجاج .. ثم قدت سيارة ذات غطاء .. وجلس بجوارى هذا الشخص .. وجلس الآخر فى الخلف .. وكنا نسير بسرعة ثم رأيت امرأة تلبس بنطلونا ونظارة وتقود موتوسيكل جاوا .. وكانت تقترب منا وتقول : لقد حان الوقت .. وهذه المرأة كنت أراها كثيراً

ولكن لا أتذكر الآن أين رأيتها !.. ثم اقترب منا راهب يلبس ملابسه الكهنوتية وله لحية وكان يقود موتوسيكل أيضاً وينطلق به فانطلقنا بأقصى سرعة وراءه .. إلى أن وصلنا إلى مكان حيث وجدنا على الأرض فتحة ذات مدخل حديدى مربع .. أشبه بالقبر!

كان هناك كثيرون .. ثم رأيت ملك الحبشة داخل تلك الفتحة وكان معه رجل خصى .. ونزلت امرأة تقدم إليه الطعام أو شيء آخر من هذا القبيل.

ثم نزل صديقى وأخذ يقوم بالحركات البهلوانية أمامه ولكن فى الغرفة الثانية.

أحسست بالضيق والملل .. وخيل إلى أن الرجل يهذى .. ولكن كنت مجبراً على الإستماع إليه ..هكذا أحسست.

«كنا مصممين على قتله » .. وأخذت أبحث عن موس حلاقة لأخذه معى .. ثم رفعته ووضعته خلف ظهرى ثم صممنا على الدخول مع المرأة .. ولكن حذرتنا منه .. ثم نزلنا إلى الممر حيث كان هناك صندوق أمام الباب .. فما إن رفعت غطاء الصندوق حتى فتحت الباب .. ورأيت أمامى رجلاً ضخماً ذا لحية وأسنانه تبدو غير منتظمة .. كان يبتسم .. وقد تظاهرت بالسجود له .. ولكن ضميرى كان يؤنبنى لأننى سجدت له دون الله .. ولكن الراهب ضحك وقال : إن شعبى الرقيق .. يعزنى .. ويحبنى .. اليوم فقط .. أدركت ذلك .. كم أنا سعيد لذلك.

ثم دخل ورقد على السرير .. وكنت أعتقد ومنذ البداية أن رأس ذلك الراهب سوف تقطع من خلال فتحات الحديد .. ثم انصرفنا .

ولكن جاء شخصان أو ثلاثة .. ومعهم كلاب متوحشة وأخبرونا بضرورة القبض على المجرم الهارب .. ثم دخلوا الغرفة .. ثم شاهدت

الراهب يخرج بدون رأس .. بدون رأسه .. وما زلت أذكر ذلك جيداً.

ثم شاهدت خيولاً كثيرة .. طويلة وضخمة جداً .. وأكبر بكثير مما شاهدتها فى حياتى .. وكان يغلب عليها اللون الأسود والبنى .. وكان السياس يخبروننى بأنهم قد أتوا خصيصاً من أجل ذلك العمل فاندهشت .. لأنهم كانوا يدفرون ويقصون شعر الحصان الأسود والذى كان يبتلع شعر حصان آخر..

لقد عرفت معنى الخيل والسرعة ..

قال : لا .. ثم ما لبث أن صمت قليلا .. ثم تابع كلماته ذات الصدى العميق فى داخلى .. ، كنت كلما حدقت فى المرأة .. رأيت نفسى مرتين وفى مشهد واحد .. مرة وأنا مجرد من النظارة .. ومرة بالنظارة .. ثم أدهشنى ذلك التحديق العجيب والغريب فى تلك المرأة التى لا أدرى من تكون؟ .. كنت أشعر دائما وأبداً بأننى محاصر !

ثم ما هذه الجثث المبعثرة .. وهذا الدم الذى يسيل ويندفع ويتدفق .. ثم ما هذه الثيران التى تندفع أمامى .. ثم هذه الوجوه الغريبة والتى ترتدى أقنعة من النيران !..

كنت أخشى دائماً العقاب ولم أعد أفكر فى أى شىء خاصة تلك الأيام السابقة ..،

ساد الصمت .. ثم نهض وإنصرف أيضاً صامتاً حتى إختفى خلف الضباب الكثيف الذى كان يغلف كل شىء .. الطريق الطويل .. والحديقة الممتدة .. والبحيرة ..

ظللت وحيداً فترة من الزمن أفكر فى صدى كلماته .

٢٠٠٠/٧/٥

مدينة نصر

(١٥)

رحيل قبل الشروق

رحيل قبل الشروق

مازالت أحترق ليلاً .. فكراً وجسداً رغم برودة الجو ورغم الضباب الذى يغلف منزلى ويغطى الأشجار التى أمامى ورغم قطرات الماء الملتصقة على زجاج نوافذ منزلى .. فالوحدة رغم حبى الشديد لها قد قهرتنى فى هذا المساء وفى هذا المكان المنعزل والذى أعيش فيه منذ شهر .. فقد بعت كل ما أملك .. ماعدا مكتبتى الضخمة واسطواناتى الموسيقية .. وإشتريت هذه الفيلا الصغيرة والتى تقبع فى قلب الصحراء .. ولما كانت الكهرباء لم تدخل بعد الى هذه المنطقة الصحراوية .. فقد تعودت على ضوء الشموع والقناديل الزيتيةحتى أصبحت حياتى ليلاً أشبه بسلسلة طويلة من الشعائر الليلية التى كانت ومازالت تقام فى الأديرة القديمة والتى تقبع أيضاً فى أحضان الجبال الشامخة .. وكنت قد تعودت على تأمل النيران المشتعلة فى المدفأة .. فالنار تحترق أيضاً وتحرق الخشب وتحدث أصواتاً طقسية رائعة تحمل عبق الماضى السحيق .. وكنت أحاول جاهداً أن أحرك أو أدفع الزمن الذى يمر متكاسلاً ومتقاعساً عن التحرك .. كما لو كان زمنا ثابتا لا يتحرك أو يتغير .. أو أشبه بزمن قد تحجر وتوقف كلية عن التقدم والحركة مخالفا بذلك طبيعته المندفعة والمتميزة .. كما لو كان زمنا هلامياً يعلن تمرده على الإستمرار فى كونه زمنا متحركاً ومتغيراً .. وصدمتنى فكرة الزمن الراكد هذه تلك اللحظة وذلك بعكس احساسى بأيام حياتى السابقة حيث كنت أشعر بالزمن المتصاعد والمتغير بسرعة عجيبة .. ومن خلال تلك الشطحات الفكرية كنت أحاول أن أفسر معنى لهيب النيران المتصاعدة ورموزها وأسرارها المغرقة فى القدم .. وكنت أدرك تماماً أن

تلك النيران كانت ومازالت تعبد .. ومازالت بين كثير من البشر .. فاتجاهات اللهب بالوانه المختلفة الرائعة وتغير توهجه وشدة إضاءته المفاجئة والاخيلة التى يمكن أن تصدر عنها لتربك خيال الانسان المتأمل .. كل ذلك كان حقاً يحيرنى .. ولا أدرى لماذا عبرت فى ذاكرتى كلمات الكتاب المقدس .. ولهيب سيف متقلب لحراسة شجرة الحياة .. ثم صور القرابين والشعائر التى كانت تقدم على مذابح وثنية مقدسة .. ومحرقات إبراهيم ومصعدات نوح .. والنار المقدسة التى كانت تنزل من السماء لكى تلتهم القرابين المقدسة للرب كعلامة مزدوجة لقبول الرب القربات المقدس المنذور .. وأيضاً كعلامة راسخة تؤكد وجود الرب الإله ذاته والذى ظهر لموسى فى العليقة على هيئة نار مشتعلة لا تنطفئ .. كل تلك الصور والإفكار كانت تحيرنى فى تلك اللحظة المشبعة بصخب الصمت المشتعل .. كنت كثيراً ما أهرب من أفكارى المتلاحقة والتى كانت ومازالت تؤرقنى طوال سنوات عمرى .. أما الآن .. فلا مجال للقلق والحيرة .. إذ كل شيء الآن يبدو لى هادئاً حتى أدق خلجات مشاعرى الداخلية الدفينة داخل صدرى المشتعل .. الآن كل شيء قد برد وتجمد وتشكل فى فكرة واحدة رغم تصاعد النار وحرارتها الافحة فى جحيم المدفأة ..

كانت رائحة المرأة التى تركتها منذ شهر مازالت عالقة بى رغم التباعد الجسدى الذى كان يربطنا .. وكان جسدها المرمرى يتراقص أمامى أشبه بألسنة الهب المتراقصة أمامى الآن أيضاً .. وكنت أعتقد أن القوة والإرادة الصارمة تكمن فى البعد الإرادى عن تلك المرأة التى كنت أحبها كل الحب والتى هجرتها .. تماماً مثل المدينة الصاخبة والتى تركتها أيضاً بلا وداع أو ندم .. ولكنى أدكت الآن بأنى كنت حقاً مخطئاً .. فليس هذا محك لإثبات القوة والإرادة.

كثيرا من الخواطر والأفكار القديمة كانت تمر فى ذاكرتى كالسحاب

المتداخل والسريع فى ظهوره وإختفاءه .. وكان أغلبها ذكريات مريرة مؤلمة ولكن لم تكن على الإطلاق السبب الرئيسى والحقيقى لتركى أو هروبى من الجامعة ومن المدينة ومن المرأة التى كنت ومازلت أعشقها .. صدمتنى كلمة هروب ! .. فلماذا أهرب ؟ وممن كنت أرغب فى الهروب ؟ .. فلست إحتياج للهروب من شىء قط .. فقد تعودت على المواجهة حتى وفى أشد الأوقات صعوبة .. وإنعزالى فى هذا المكان المنعزل والقابع فى الصحراء قرار شخصى بحت لا دخل لأحد فيه .. بل قرار اتخذته بمحض إرادتى .. وكنت حقاً أفكر فى أمى المريضة بفقدان الذاكرة والتى لا تعى شيئاً مما حولها والتى تعيش الآن فى دار للمسنين تنتظر الموت بين لحظة وأخرى وقد أشعرنى مرضها بالعجز والإحباط إلى درجة اللامبالاة .. فأنا لا أستطيع أن أفعل لها شيئاً أمام حالتها المرضية هذه .. وقد سبق أن أعطيتهم رقم تليفون سائقى الخاص حتى إذا ما حدث شىء لها إتصل بى فوراً .. إذ إنه الإنسان الوحيد الذى يعرف أين أمضى تلك الفترة من حياتى .. وهو بلا شك سوف يتصل بى إذا ما حدث لها شيئاً .. أما ما عدا ذلك فأنا لا أقيم وزناً لأى شيئ آخر فى هذه الحياة .. وخاصة بعد استقرارى فى هذا المكان المنعزل والإرتماء الإرادى فى قلب الصحراء .. سوى محاولة استرجاع خطوات حياتى التى مرت بى بسرعة غير مقبولة وغير مفهومة بالنسبة لى على الأقل .. فقد حققت طوال سنوات عمرى كل ما كنت قد عقدت العزم عليه وقد استحق منى ذلك جهداً غير عادياً حتى أنهكنى التعب وأشعرنى ذلك بالفخر .. سافرت الى كل بلدان العالم عبر سلسلة الندوات والمؤتمرات والمهمات العلمية والمحاضرات التى كانت تكلفنى بها جامعتى أو الجامعات الأخرى .. وها أنا قد تركت الجامعة ولا أدرى هل سأعود إليها ثانية أم لا ؟ .. وحمدت الله على أن تلك الفترة الصيفية التى أقضيها الآن هى فترة كمون بالنسبة لى وفترة إسترجاع وتأمل الماضى وهى أيضاً فترة كافية لإتخاذ القرار بشأن حياتى القادمة وما الذى يمكن أن

تضيفة تلك الخطوات القادمة لحياتى لأنى وعلى ضوءها سوف أعيد تقييم حياتى السابقة والتى انسلت منى .. إن تلك الخطوة تشكل أيضاً مرحلة من مراحل حياتى المختلفة .. ولا أستطيع أن أحدد بدقة ما هى أفضل مراحل حياتى فلم أكن أملك الوقت لكى أعرف ما هى الخطوة القادمة فى حياتى .. ولم اتوقف لحظة واحدة لكى أقيم الأشياء المحببة إلى نفسى .. وما هى الطريقة التى كنت أعيش بها وهل كنت أشعر بالرضى والإمتنان لكل ما فعلته فى حياتى .. كان كل شيء يتساوى لدى الآن .. الماضى والحاضر .. ما فعلته وما لم أفعله .. ما فكرت فيه وما لم أفكر فيه .. ولا أتذكر أنى ندمت على شيء قط .. إبتسمت فى بساطة شديدة لشعورى بأنى قد تخلصت من كل شيء كان يربطنى بالعمل وبالآخرين .. وبأمى .. وبمعنى آخر .. كنت غير مسؤول عن أى شيء فى حياتى التى أمضيها الآن والتى أرغب فيها أن أتذوق طعم التأمل والفراغ اللامتناهى وكنت على يقين من أن هذا الشعور قد يوصل الإنسان إلى مرحلة الإسترخاء النرفانية الدافئة وإلى التأمل التام فى كل ما يطمح عقلى الوصول إليه .. شيء أشبه بلعبة اليوجا التى كنت أمارسها أحيانا .. وكانت الموسيقى من أحب الأشياء التى أعشقها فى هذا الوجود .. وكنت لا أستطيع أن أقوم بعمل إلا على صوت الموسيقى الهادئة أو الكلاسيكية التى عشقتها منذ الصغر وكنت أكره الأفراح لإنها صاخبة وبها حشد من البشر .. ولا أحب الخروج كثيراً من المنزل .. كنت أحس براحة شديدة عندما أنتهى من المحاضرات وأعود إلى المنزل .. كنت حقاً أكره إجتماعات الأقسام ومجالس الكلية .. وكنت لا أعى كثيراً ما يدور فى هذه المناقشات السقيمة والتى أمقتها مقتاً شديداً وأعتبرها مناقشات عقيمة غير مجدية .. وأشعر بالإستغراب التام من إنفعال الأساتذة الذين تحمر وجوههم من شدة الإنفعال وترتفع أصواتهم المتداخلة أثناء نقاش بعض القضايا الهلامية .. وكنت أسأل نفسى دائماً .. هل هذه القضايا تستحق حقاً هذا الإنفعال وهذا الجهد وهذا الكم الهائل من

الزمن الذى ينسل منى ! .. وكنت على يقين تام بأن تلك اللحظات هى كل وجود وحياة بعض الأساتذة الذى يحملون درجات علمية لإنهم كانوا يحفظون الكتب ويعيدون تكرار الأفكار التى تعلموها دون إضافة .. بل ويعتقدون بأن كلماتهم تحمل معنى وجودهم .. حتى ولو كانت كلمات جوفاء خالية من المعنى .. فالرجل عندهم هو كلمة تقال لإثبات الحضور فى هذه الجلسات .. وكنت أبتسم فى داخلى إذا سألنى أحدهم بإنفعال شديد: أليس كذلك ؟ فأهز له رأسي موافقاً دون أن أعى بالتحديد ماذا كان يقصد!

كانت لحظات التدريس داخل المحاضرات هى كل حياتى وعالمى الجميل ولم أستطع طوال سنوات عمرى أن أتخيل أننى أقوم بعمل آخر غير التدريس .. كنت أعشق الفلسفة وهى مجال تخصصى .. والفن والتاريخ والأدب والدراما .. وأيضاً الموسيقى إذ لا أستطيع أن أحتمل الحياة بدون الموسيقى .. وكانت المناقشات التى أجريتها مع الطلبة تدفعهم إلى التفكير فى كل ما يدرسونه ويرونه ويسمعونه فى هذه الحياة .. وكنت أؤكد لهم أن الفن والأدب والموسيقى ..تعين الإنسان على مواصلة الحياة وفهمها فهماً عميقاً من أجل غد أفضل .. وكنت أعى جيداً وفى نفس الوقت .. أن هناك نوعاً من الغموض يحيط بى من قبل تلاميذى وبعض الأساتذة .. فمنذ عينت معيداً فى الكلية وإلى الآن لم أشعر بأنى قد غيرت نظام حياتى .. نفس النظام القاسى الذى فرضته على نفسى طواعية وحبا لتحقيق كل ما كنت أريد أن أصبوا إليه .. الإستيقاظ مبكراً .. قراءة الجرائد .. تناول الأفطار .. الذهاب إلى المحاضرة .. لم يحدث أن تغيبت يوماً واحداً .. العودة .. تناول الغذاء .. مشاهدة التليفزيون .. الدخول إلى غرفة المكتب للعمل .. ساعات طويلة كنت أقرأ فيها .. ثم أعطى لنفسى أربع ساعات لكتابة كتاب جديد تستهوينى فكرته .. ثم النزول ليلاً لإحتساء البيرة أو

النبيذ الذى أعشقه فى إحدى الفنادق .. ثلاثة أيام ألعب فيها الإسكواتش أو أمارس السباحة .. ،كنت أرفض الزواج لا شعورياً ولا أريد أن أرتبط باحد حيث كنت أشعر من داخلى بأنى أرفض القيود التى تفرض لإعتبارها عرفاً من الأعراف التأسيسية فى المجتمع .. وأعترف بأنه كانت لى صداقات كثيرة ترضى غريزتى الجسدية ولم أكن قط راهباً .. وكانت تلك المرأة التى صادقتها قد أغنتنى عن كثير من تلك الصداقات العابرة .. وكنت قد قابلتها فى إحدى المكتبات أثناء شراءها بعض الكتب الأجنبية .. وتبادلنا بعض الكلمات ثم دعوة لتناول شيئاً ما .. ثم إنتهى هذا اللقاء فى منزلى .. ولا أذكر أنى قد سألتها عن أسمها أو وظيفتها أو حتى عن حالتها الإجتماعية .. وكانت إنسانه مثقفة تشبع نهمى وفضولى العقلى والجسدى ..

إذ كنت أعشق لقاء الفكر والجسد فى لقاء واحد يشبعنى جسداً وفكراً .. وكانت تجيد بعض اللغات الأجنبية وتتحدث بطلاقة غير عادية .. وقد كانت حقاً شيئاً مهماً فى حياتى .. ولكن لم يخطر على بالى ولو للحظة واحدة فكرة الزواج أو حتى الإرتباط بها الى الأبد .. أذ أننى إدرك تماماً بأنه لا توجد علاقة تستمر الى الأبد وكنت أدرك أيضاً .. أن هناك أشياء فى هذه الحياة لا تجعل الإنسان يسير على وتيرة مزاجية واحدة سواء بالنسبة لى أو بالنسبة إلى غيرى أو حتى بالنسبة لها أيضاً .. فقد تعودت أن أحترم وأقدس حريتى الشخصية مثلما تعودت على إحترام حرية الآخرين .. وأذكر إنى أخبرتها ذات يوم برغبتى فى ترك المدينة والإرتماء فى أحضان الصحراء .. ولم اكن أدرى كم من الزمن سوف تستغرق منى هذه التجربة .. ولكنها لم تقل شيئاً سوى إنها تمنت لى وقتاً سعيداً .. فكرت أن أدعوها الى خوض تلك التجربة معى .. ولكننى أحجمت عن توجيه مثل تلك الدعوة ولا أدرى ما الذى ألجم لسانى!..

النار مازالت تتراقص فى المدفأة .. والذكريات تهاجمنى بقسوة فى

وحدتى هذه لكى تعذبنى كما بدا لى .. والنبيذ المجرى يشعل فى عقلى النشوة ويشعرنى بالحرارة التى تسرى فى جسدى .. وكنت قد تعودت على أن أجلس دائماً فوق هذا الكرسى الفوتى والذى أغوص فيه أيضاً لكى تكتمل متعتى البريئة .. ولكن لا أدرى لماذا أشعر بعبق تلك المرأة وهو يطاردنى من خلال أنفاسى المشبعة بالنبيذ .. ولماذا أحس برغبتى فى مجالستها ومناقشة كتب الأدب والفن والفلسفة وإحتوائها أيضاً بين ذراعى كما كنت أفعل معها فى الماضى .. الماضى القريب والذى لم يتسلخ من ذاكرتى وخيالى لحظة واحدة .. ومن ثم ادركت إنه لا يوجد ماضى طالما تعي ذاكرة الإنسان كل أفعاله وذكرياته .. نظرت لا شعورياً إلى الساعة فإذا هى ذات إيقاع بطىء أيضاً .. فالوقت يمضى هنا فى إسترخاء شديد لكى يتوافق مع حالتى هذه .. ومازال الضباب خارج نافذتى وقطرات الماء تلتصق بقوة بزجاج النافذة ومازلت أسمع الصمت الجميل وخاصة بعد إنتهاء إسطوانة شوبان .. لا شيئ فى هذا العالم يعنينى .. لاشيء فى هذا العالم يعزينى .. ولا أدرى لماذا تذكرت لحظات صلب المسيح وكيف احتمل هذا الآلم القاسى وكلماته الأخيرة على الصليب .. الهى .. الهى .. لماذا تركتنى ..

أفرغت الكأس الأخير .. وتذكرت قصة العجوز والبحر لهمنجواى ولوحة حقل الحنطة لفان جوخ أحسست بسعادة غامرة تغمرنى من الداخل بالفخر والإنتصار .. فكل شيء لدى فى تلك الساعة الهلامية والتى أشعر فيها بأنى قد حصلت على الهدوء الكامل الذى كنت أطمح إليه يوما ..

نهضت وإتجهت إلى المدفأة وألقيت فيها بعض الأخشاب .. وسرت فى تراخى شديد الى الناحية الأخرى من الحجرة وتأملت الحائط حيث تعلق عليها بعض الأسلحة التى أقتنيها .. سيف يابانى لمحاربى الساموراى .. بندقية خرطوش .. وبندقية أمريكية الصنع كنت قد اشتريتها أثناء

رحلتى فى جنوب أفريقيا لمشاهدة الحدائق المفتوحة والتى تعيش فيها الحيوانات كما كانت تعيش منذ القدم .. وضعت رصاصة فى البندقية وأعدت تشغيل إسطوانة شوبان وإنتظرت بجوار النافذة المبللة من الخارج بقطرات ندى الصباح متشوقاً لرؤية أول شعاع لشروق الشمس .. النار مازالت فى المدفأة تتراقص أمامى .. وقطرات الماء تتساقط فى بطء شديد على جدار النافذة غير عابئة بأشعة الشمس الأولى لهذا الشروق الجديد .. وفى الخارج كان الجو بديعاً .. وكانت أشعة الشمس قد بدأت فى الظهور التدريجى شيئاً فشيئاً ..

وعلى بعد أمتار من الفيلا حيث الطريق السريع للسيارات .. سمع بوضوح دوى طلقة نارية ثم أشرقت الشمس من جديد حتى غمرت الأرض بنورها لكى تعلن للعالم مولد يوم جديد من أيام الزمن السرمدى.

د. عصام عبد العزيز

مدينة نصر

٢٠٠٤/٦/١٥

(١٦)

الرجل الجداري

الرجل الجدارى

إنفجر كل ما بداخله من غضب وسخط ورعب حقيقى .. وظل يهذى هذياناً محموماً غير مفهوم .. ورمقته العيون والوجوه .. فحاول فى بساطة ورقة متناهية .. أن يوضح موقفه .. أن يفصح عما يشعر به حيال صدمته العنيفة القاسية والتى حدثت له بغير إنتظار .. لقد داهمه إنسان فى مكتبه .. خرج إليه فجأة من الجدار .. جدار حائط مكتبه .. سائلاً إياه أن ينقذ زوجته التى تعانى من الوحدة والملل .. لقد تركها ورحل .. رحل بلا عودة إلى عالم غريب مجهول .. إلى عالم جدارى سميك أشبه بأعماق طبقات الأرض .. أشبه بصور كتب الجيولوجيا .. إنه يقطن الآن فى الجدار الثالث .. إن زوجته تتنقل من أحضان رجل إلى رجل .. من منزل إلى آخر .. يحركها شيطان الجسد والوحدة .. إنه لا يستطيع أن يتحمل ذلك .. لا يستطيع أن يعيش هناك داخل الحائط بدون هذه الزوجة .. ولا يستطيع فى نفس الوقت أن يعود إليها ولو للحظات .. رغم الشوق الجارف والملتهب الذى يحمله داخله فيحرقه حرقاً .. إنه يحترق داخل هذا الحائط الجدارى .. صمت قليلاً .. ثم واصل كلماته .. لقد توسل إليه ذلك الرجل الجدارى ولكن فى حزم صارم وبصوت قوى واضح .. أن يعمل جاهداً على مساعدته .. كى يعود إلى عالم البشر .. أو أن يعمل وبكل طاقته على إرسال تلك الزوجة الى عالمه .. عالم الجدار الأصم .. إذ أنه يشكو أيضاً من شيطان الجسد والوحدة .. ثم واصل هذا الرجل الجدارى كلماته السريعة .. وأخبره بكل ما كان يربطه بتلك الزوجة .. حتى أدق تفاصيل حياته ..

حياته الخاصة معها .. محذراً إياه رد فعله الغاضب وغيرته الحادة المدمرة .. ثم حمله مسؤلية هداية تلك الزوجة .. لقد عهد إليه بهذه المهمة المقدسة .. عودة الزوجة إلى أحضان الفضيلة رغم الوحدة والملل وشيطان الجسد .. هذاإذا تعذر عودته من عالمه الجدارى وإذا تعذر إرسال تلك الزوجة إليه .. ثم ما لبث أن إختفى مرة أخرى داخل الحائط الجدارى لغرفة مكتبه..

إندهش الجميع للكلمات التى ينطق بها ذلك المدير العام للشركة .. لقد مسه المس .. أصابه اللطف جن جنوناً مطبقاً وبغير مقدمات .. من كان يصدق أن ذلك الإنسان الرقيق الوقور الصامت دائماً يمكن له أن ينفجر هكذا وينطق بهذا الكلام الهلامى الغير مفهوم ! .. فما الذى حدث له؟ ما سبب ذلك الإنفجار والجنون المفاجىء ؟ .. إن عشرات من الأسئلة والتعليقات قد إلتقت فى غرفة هذا المدير .. والذى كان يوماً مديراً وقوراً ..

صاح بأعلى صوته .. لقد وكل إلىّ مهمة تفوق طاقة الإنبياء والبشر .. أنا لا أعرف هذا الرجل على الإطلاق .. لا أعرف إسمه ! .. لا أعرف اسم زوجته بل لا أملك عنوان هذه الزوجة .. فكيف يمكن لى انقاذ هذه الزوجة العاهرة ! إن زوجته تخونه مع رجال أهل الأرض ! .. أهذا ما إنتهى إليه وفاء تلك الزوجة!.. أكاد أقسم بأن كل زوجات رجال الحائط الجدارى يسرن على تلك الشاكلة .. إن الرجل يحترق .. لقد تركنى بلا أى معلومات تخدمنى .. والزمن يمضى بى .. وأنا أحترق كما يحترق هذا الرجل الجدارى المطعون فى كرامته .. ما لكم ومال هذا التحديق المستمر .. ما لكم ومال هذا الصمت القاتل المرسوم على وجوهكم .. ألا يمد أحدا منكم يده بالمساعدة! .. ألا يسعفنى أحداً ! .. إنى أحترق جسداً وروحاً ! ..

لا أدرى ماذا أقول له إذا ظهر لى مرة أخرى !.. لا ذنب لى .. ولا يمكن إدانتى وتحميلى وزر جريمة الخيانة .. لا يمكن إدانتى لعدم

إستطاعتى معرفة هوية تلك العاهرة أو عنوانها .. ألا يستطيع أحداً منكم أن يشعر ويدرك الذنب الذى أشعر به وأعانى منه تجاه هذا البرىء الذى صدمنى أولاً بخروجه من الحائط .. ثم بتحميلى شرف أمانة إنقاذ هذه الزوجة ثانياً .. زوجة عاهرة أليس كذلك ! .. أنا أحمل على عاتقى أمانة إنقاذها من براثن العهر والخيانة .. لو كان بها ذرة من النقاء أو الأمانة ما تركت هذا الرجل الجدارى داخل الحائط وتفرغت لدعارة الجسد .. وما كان لى الآن أن أحترق فى بوتقة أمانة المسئولية .. إنها عاهرة .. عاهرة تخون زوجها وتخون رجال الأرض .. جسد يتلوى بالشهوة والشبق .. كل ما بداخلها ينطق بالعهر والدنس .. لا تخشى الفضيحة .. لا تخاف الله .. لا تحترم العرف والقيم .. لا تبالى بهذا الزوج الكامن فى هذا الحائط الجدارى .. ولكن أى زوج وهو ؟ أنا لا أعرفه .. بل ليس هناك أى معلومات عنه .. ولكن الذى يحيرنى هو خروج هذا الرجل المطعون فى كرامته من جدار الحائط الجدارى! .. لا أدرى .. بل لا أعرف كم مكث فى هذا الجدار .. أكان مختبئاً فيه منذ زمن بعيد .. منذ أيام .. سنوات .. وما الذى يفعله داخل هذا الجدار .. ثم لماذا ظهر لى أنا بالذات .. إن فى هذا المكان أكثر من عشرين غرفة .. فلماذا أختار أن يظهر فى غرفتى أنا ولماذا طلب منى أنا بالذات أن أحمى شرفه وعرضه وأن أحافظ وأنقذ جسد وروح زوجته .. لماذا تقع علىّ هذه المهمة ؟ .. هناك أكثر خمس مائة موظف فى هذه الشركة .. فلماذا أنا بالذات .. كل هذه الأسئلة تحيرنى .. تربكنى .. تمزقنى .. كل شىء كان بالنسبة لى واضحا وبسيطاً .. أما الآن فكل شىء قد تغير وتبدل .. كنت أستيقظ كل يوم فى تمام الساعة السادسة .. أذهب إلى عملى فى الثامنة .. أعود إلى منزلى فى الرابعة .. ثم أنام فى العاشرة .. وهكذا حافظت جاهداً على قدر إستطاعتى على هذا النظام السرمدى .. لم أتزوج لهذا السبب .. لم أحلم بطفل لم أشتهى شيئاً خوفاً وحرصاً على

نظامى اليومى الصارم والذى لا تبديل فيه .

لم أطمع فى شىء فى هذا العالم .. فلماذا يهاجنى هذا الرحل بقوة ويعكر صفو هذا النظام وهذا الهدوء ..أيها الرب العادل ألا آن لك أن تفصح لى عن هذا السبب !.. ولماذا أنا المقصود .. لا أعرف .. لا أعرف كيف يمكن مساعدة هذا الرجل الجدارى .. أى رجل هو؟ أنا لا أعرفه .. لم أراه مطلقاً .. بل لو كان يعرفنى ما ظهر لى لكى يقلب اتزان يومى وحياتى .. أيها الشهود .. أيها الحضور .. الشهود على إحتراقى .. ساعدونى ساعدونى .. لكى ننقذ كرامة هذا الرجل .. إنه حتما سيعود ولا أملك إجابة قاطعة .. بل ليس فى إمكانى أن أساعده .. كل شىء غامض .. إن فى مساعدته .. خروجى من هذا المأزق .. من هذا الجحيم الذى لا يطاق .. ساعدونى .. ساعدونى أيها الشهود .. عقلى قد توقف عن التفكير .. قلبى يخفق خفقاناً شديدا إننى أدور فى حلقة مفرغة .. أنى أختنق .. إنى أحتضر .. أحتضر .. وأنا أنسل من هذه الحياة .. أود لو أختفى عن هذا العالم .. أود ألا أكون قد وجدت فى هذا العالم القاسى والذى يفرض علىّ مهمة .. مهمة هلامية .. سرابية .. أيها الرجل الجدارى .. أستحلفك بالله .. بل أستحلفك بحبك الجارف لهذه الزوجة العاهرة أن تعفينى من هذه المهمة .. من هذه المهمة التى ينوء لها ظهرى والتى تثقل روحى .. رجاء من الأعماق أن تسمح لى بالإنسلال الخفى من هذا المكان .. أن ترفع عن كاهلى هذا الحمل الثقيل الذى انتزعنى من حياتى البسيطة .. أنا .. أنا أضعف من أن أتكلم عن فقد اتزانى إذاء ظهورك الجرىء .. المقتحم .. ولكن لا أملك لك شيئاً .. أن السير على الماء وعبور السراب أسهل من معرفة كنة ما تطلبه منى .. أيها الشهود .. أيها الشهود الذين يحملقون فى وجهى كأنى مجنون بهذى أمامكم .. ألم يمر أحداً منكم بهذا الموقف . . ألم يخرج لاحد منكم رجلاً جدارياً من الحائط لكى يربك حياته .. لاشك

فى أنكم لم تعانو من تلك التجربة .. لم تهزكم الصدمة التى صدمتنى وأرقتنى .. أنتم السعداء الذين لم يحملوا أمانة إنقاذ شرف رجل جدارى مجهول الاسم .. إنقاذ زوجة عاهرة من براثن العهر .. بل إن الأمر قد إختلط علىّ .. فكيف يمكن لى إنتزاعه من الجدار ؟ بل أنا لا أدرى هل أمسك بزوجته وأدخلها داخل الحائط ؟ كيف يمكن لى .. أن أخرجه من الحائط وأعود به الى عالم البشر .. ؟ .. كيف يمكن لى أن أفعل ذلك !.. إن المشكلة تكمن أيضاً فى كون تلك الزوجة .. زوجة هلامية .. امرأة سرابية .. كل شىء هلامى .. الرجل .. الزوجة .. المهمة .. حتى هذا الموقف الذى أجد نفسى فيه أمامكم هو موقف هلامى أيضاً .. غير إنى لن أستطيع الوقوف عاجزاً عن فعل شىء ما .. لابد أن أفعل شيئاً .. لابد أن أفعل شيئاً ما .. أن أقدم على خطوة تخرجنى من نطاق السلبية والعجز .. خرج مسرعاً إلى خارج غرفته وفى الطرقة .. كسر بيده وبقوة صندوق المطافىء وأخرج بلطة ضخمة .. ثم إندفع عائداً إلى غرفته .. غرفة مكتبه .. وبدأ يضرب فى الحائط الذى خرج منه الجدارى ضربات قوية ومستمرة .. صائحاً فى حماس شديد .. أيها الرجل الجدارى .. سوف أخرجك من الحائط الجدارى وسوف أعرف اسمك .. واسم زوجتك وعنوانها .. ثم أنصب من نفسى إماماً لها لى تعود الى أحضان الفضيلة .. لقد كنت دائماً على حق فى عدم إرتباطى بزوجة .. زوجة تقودنى حتما إلى هذه النهاية المأسوية .. ضربات مستمرة فى الحائط الجدارى حتى إنهار جزأ منها .. ضعفت وخارت قواه .. سقط على الأرض باكياً لعجزه عن فتح ثقب من هذا الجدار لكى يخرج منه هذا الرجل الجدارى .. كان سقوطه وحزنه ودموعه .. دليلاً كاملاً على عجزه وإستسلامه الكامل لليأس القاتل .. وساد الصمت .. وعجز كل الشهود عن فعل شىء لهذا المدير الرقيق ..

وجد أمامه تليفون مكتبه ملقى أمامه على الأرض .. أمسك به

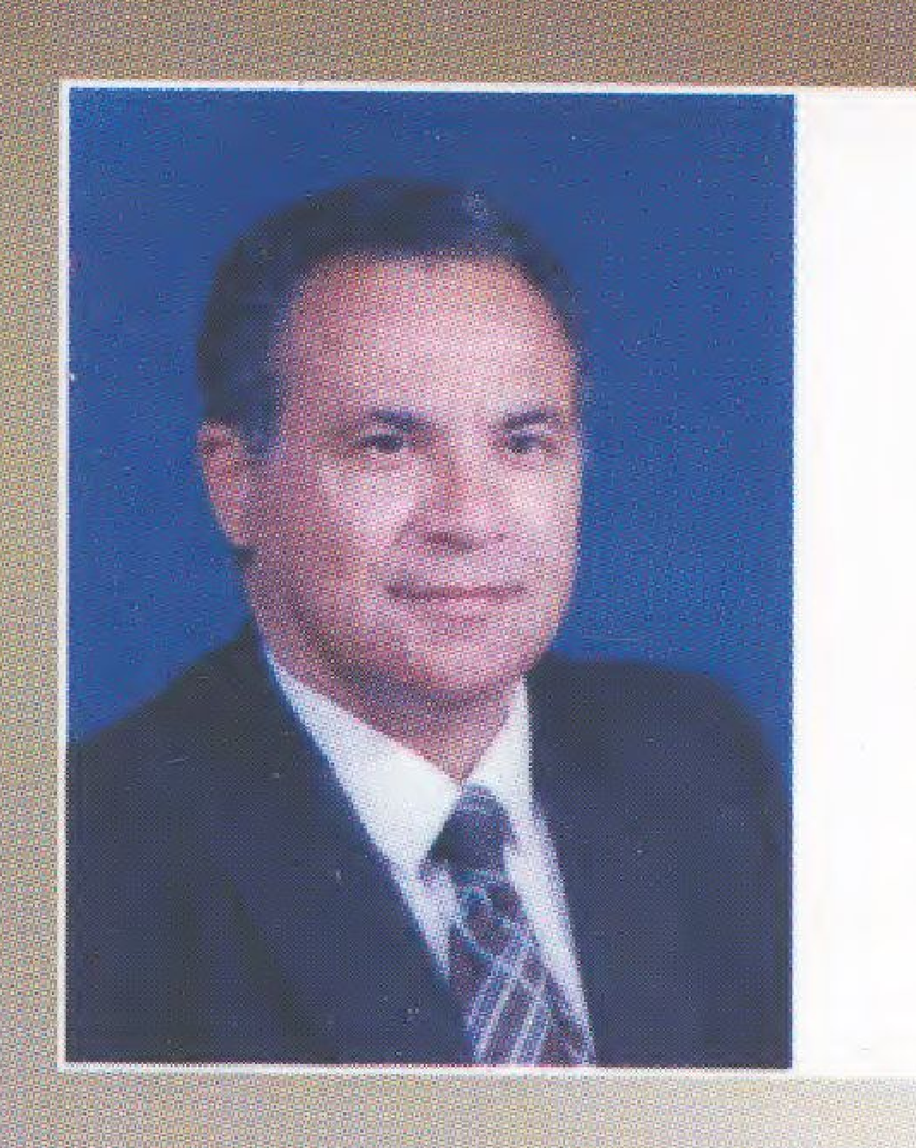
وإتصل بالشرطة لكى تحضر ..

وحضر جمع من الرجال الأقوياء ،معهم طبيب وضابط شرطة ومجموعة من الأمناء .. أعطى له حقنة .. ثم اصطحبوه بعيداً عن مكتبه وعن غرفته وساروا معه فى صمت .. قال .. إن الرجل الجدارى مازال فى الحائط .. أجابوه بالصمت ومضوا به أيضاً فى صمت ..

د. عصام عبد العزيز

٢٠٠٤/١/١٩

* نشرت لأول مرة فى جريدة الأهرام فى ١٤ مايو ٢٠٠٤ (ملحق الجمعة)





الصمت عالم مقدس .. عالم مغرق فى خصوصيته وفى لغته الطقسية .. الصمت بوتقة تنصهر بداخلها جميع المشاعر والأفكار الإنسانية والتى تنحو بنا نحو البناء والرقى أو نحو الهدم والتدمير ..

وإذا كان لا يعلم ما فى الصدور إلا الله .. فإن الصمت قد يفصح عن ذاته من خلال الإنسان ذاته وذلك عن طريق الفعل والكلمة ..

والصمت قد يجسد لنا صمت الصدمة .. صمت الحب .. صمت الموت .. صمت الصمت ذاته .. صمت القدر والذى لا يفصح عن وجهه إلا من خلال الأعمال وما على الإنسان سوى انتظار نتيجة صمت الوجود .. وانظار المستقبل المجهول ..

إن عالم الصمت والحلم عالمان متشابهان فى خصوصيتهما ، ولكل إنسان حلمه وصمته أيضًا .. وحين يلتحم الحلم بالصمت داخل الإنسان .. تتكشف لنا عوالم جديدة وأعماق إنسانية مجهولة .. و وظيفة القصة والدراما هى الكشف عن لحظات صمت الإنسا صخبه الصامت داخله وترجمتها إلى أفعال وكلمات !..

فليتكلم الصمت هنا .. وليفصح لنا عن ذاته من خلا غضبه وشره وأيضًا من خلال أروع صوره قداسة .

عصام عب



ISBN-977-05-2304-6
9 789770 523049

